الزكاة

www.abulhasanalinadwi.org

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٩٩٤م

دار الكلمة للنشر والتوزيع ـ مصر ـ المنصورة

٣٨ ش الثورة (السكة الجديدة) ت ، ف: ٣٤٣١١٥ ص . ب ١٦٧

www.abulhasanalinadwi.org

الأركان الأربعة
فى ضوء الكتاب والسنة
مقارنة بالأديان الأخرى
(٢)

الزكاة

أبو الحسن على الحسنى الندوى

دار الكلمة للنشر والتوزيع - مصر - المنصورة

www.abulhasanalinadwi.org

بسم الله الرحمن الرحيم

www.abulhasanalinadwi.org

الزكـــــاة

﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ﴾
[براءة : ١١]

صلة الرب والعبد ، وما توجبه من حب وإخلاص ، وبذل وإيثار :

لاحظ الصلة الغريبة الفريدة التى تقوم بين الربّ والعبد، وهى صلة لا يوجد لها نظير ولا أساس للقياس من بين الصِّلات ، فى الأصالة والعمق ، والسعة والاحتواء ، والشمول والإحاطة (١) ، وأقل ما يقال فيها : إنها صلة الخالق والمخلوق ، والرب والمربوب ، والرازق والمرزوق ، والمالك والمملوك ، والحاكم والمحكوم ، إنها صلة بين سيّد كريم وربّ رحيم ، وبين إنسان فقير وعبد ذليل ، توجب صفات هذا الرب الكريم الكماليّة ، وأفعاله البديعة ، وربوبيّته الحكيمة الرّحيمة ، ورعايته اللطيفة الدقيقة ، أن يخلص له الحبّ ويهيم به القلب ، وتبذل فى

(١) سبق له بحث طويل فى موضوع الصلاة .

www.abulhasanalinadwi.org

سبيله المهج والأرواح ، فضلاً عن الأموال والأملاك .

مظاهر الربوبيّة والعناية بالإنسان :

وتأمّل فى مظاهر ربوبيته الشاملة ، وهدايته الواسعة فى هذا العالم ، وعنايته الفائقة بهذا الإنسان ، فهو الذى خلع عليه لباس الوجود المتناسب ،وهيّأه للانتفاع بخيرات الأرض وطيِّباتها ، وذخائرها وكنوزها ، ووسائلها وطاقاتها، تهيئة حكيمة دقيقة ، وألهمه حبّها والبحث عنها والفناء فى سبيلها وطرق استخدامها ، والتعاون فى تنظيمها ومبادلتها مع أبناء جنسه .

وقد تجلّت صفة الربوبيّة والهداية فى جميع الأنواع والأجناس ، وفى جميع الأصناف والموجودات ، ﴿ **الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى** ﴾ [طه : ٥٠] وكان للإنسان الذى هو خليفة الله فى الأرض من ذلك النصيب الأوفر ، والمركز الرئيسى ، ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً** ﴾ [الإسراء : ٧٠] فذلّل له مناكب الأرض ، ووطّأ

www.abulhasanalinadwi.org

له أكنافها ، وحثّه على استثارة دفائنها ، واستخراج خيراتها ومكامنها ، ﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ** ﴾ [الملك : ١٥] وسخّر له منابع القوت ومصادر الغذاء ، وقوائم الحياة ، وهى الحبوب ، والماء ، والنّار ، الوسائل الأصيلة الفطرية ، الأساسية الرئيسية ، التى تقوم عليها الحياة البدائية فضلاً عن المدنيّة الراقيّة ، ﴿ **أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ . أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ . لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ . إِنَّا لَمُغْرَمُونَ . بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ . أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ . أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ . لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلا تَشْكُرُونَ . أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ . أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ . نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ** ﴾ [الواقعة : ٦٣ ــ ٧٣] .

الطبيعة البشرية ، وما لها من أثر فى الحياة والمدنيّة :

ثمّ أودع طبيعته ــ خلافًا لطبائع الجمادات والحيوانات ــ

www.abulhasanalinadwi.org

حب التجمّل والأناقة والتظرّف والنظافة ، والتنوع ، والتوسع فى المطاعم والمشارب ، والزيادة فى الحرث والنسل الطبيعية التى تكتسب بها الحياة البشرية حرارتها ونشاطها وحماستها وكفاحها ، ويكتسب بها هذا العالم عاطفة التقدّم والرّقى، والتغيّر والطرافة، فأرخى له العنان:

﴿ كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً ﴾ [الإسراء : ٢٠] ﴿ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً ﴾

[الإسراء: ٢١]

وألهمه التعاون وضمانة الحقوق ، والحرص على سلامة الطرق وأمن البلاد ، وحبّ الأسفار والمغامرات فى سبيل الرزق الكريم ، وجلب المنافع المشتركة ، فأودع كلّ ذلك الطبيعة البشرية على اختلاف أدوارها وتنوّع أمصارها، ﴿ لإِيلافِ قُرَيْشٍ . إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ . فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ . الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾

[قريش]

www.abulhasanalinadwi.org

الوضع والواقع ، يقتضيان أن لا يُقرر للإنسان ملك ولا يضاف إليه شيء ، وأن يكون الملك كله لله :

فكان هذا الوضع الفطرى ، وكان هذا الواقع العملى الذى ظهر فيه عجز الإنسان وفقره ، وضعفه وتفاهته فى أجلى أشكالها ، وظهرت فيه الربوبية الإلهية فى أروع مظاهرها ، يقتضى بحكم العقل والمنطق والوجدان السليم، أن لا يُقرّر للإنسان ملك ، ولا يتحقق له حقّ ، ولا يضاف إليه شيء ، إلاّ كما يُضاف إلى طفل صغير ، أو رضيعٍ محمول ، يتقلب فى حنان أمّة وعطف أبيه ، ويحبو ويدرج فى نعمتهما ، ويرتع ويسرح فى ظل جهدهما وكدحهما ، بل هو أقلّ شأنًا وأكثر هوانًا فى هذا الكون الكبير وبجوار هذا الرب العلى القدير من هذا الطفل الصغير فى بيت أبيه الكبير ، ﴿ **وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ [الروم : ٢٧] ووجب أن يُضاف كلّ شيء ممّا تملكه الإنسان ، وأضافه إلى نفسه جهلاً من أموال ومكاسب إلى من خلقها ونمّاها، وحرسها وصانها ، ومكّن الإنسان منها لغرض محدود ،

www.abulhasanalinadwi.org

ووقت محدود ، وطريق محدود .

الفكرة الأساسية فى النظام الاقتصادى الإسلامى ، تقرير الملكية الحقيقية لله تعالى :

ولهذه الحقيقة التى تسيطر على الحقائق كلها ، وهى الروح التى تسيطر على جميع النظم الدينية الخلقية والاقتصادية ، أضاف القرآن هذه الأحوال الإنسانية كلها إلى الله تبارك وتعالى ولم يقرر للإنسان إلا منصب الأمانة والخلافة ، فخاطب المسلمين تارة بقوله: ﴿ **وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُم** ﴾ [النور : ٣٣] وطورًا بقوله : ﴿**وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ** ﴾ [الحديد : ٧] وقرر أن الله هو المالك الحقيقى ، والوارث الحقيقى ، فليس لإنسان يرضخ بجزء يسير من هذا المال منّ ولا فضل ، وليست له مأثرة يُدلّ بها ،ولا مفخرة يتيه بها ، فقال : ﴿ **وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ [الحديد : ١٠] وكان مقتضى هذا الوضع ، أن يطلب من الإنسان أن يتخلى عن كل ما يملكه ، ولا يُمنح حق التصرف فى ماله

www.abulhasanalinadwi.org

فى قليل ولا كثير ، وأن يبقى مغلول اليد ، مقيد الإرادة ، مشلول الحرية .

سر إضافة الأموال والملكية إلى الإنسان ، وفائدتها :

ولكن الله سبحانه وتعالى لم يفعل ذلك ، ولم يجر القرآن ــ وهو الكتاب السماوى الأخير ــ على نمط واحد من إضافة هذه الأموال ونتائج الجهود الإنسانية وثمرات كفاحه إلى الله تبارك وتعالى فى كل مناسبة ، فلو فعل ذلك لما أثار دهشة واستغرابًا ، لما قدمناه ، ولكنه لو فعل ذلك لأفقد الإنسان ثقته بنفسه ، واعتزازه بكرامته ، واعتماده على قواه وطاقاته ، وحرمه عاطفة الكدح ، ونشوة الطموح ، ودافع التنافس ، ولذة الحياة التى يجدها الإنسان فى نسبة الأشياء إلى نفسه ورؤية نتائج سعيه وجهده ، هذه هى اللذة الفطرية التى تراود الأطفال الصغار لنسبة كل ما حواه بيتهم ، أو ملكه آباؤهم ، إلى أنفسهم، وحرم بذلك الإنسان دافع الحب والإشفاق ، والنصح والإخلاص ، فى حراسة هذه الأموال والأملاك، وتزكيتها وإنمائها ، وإثمارها وإنتاجها ، وجرّد الحياة البشرية من

www.abulhasanalinadwi.org

أقوى عوامل زحفها وصراعها ، وجهادها وكفاحها ، وأصبح العالم كلُّه مصنعًا كبيرًا ، يتحرك فيه بنو آدم كآلات صمّاء ، لا قلب لهم ولا ضمير ، ولا متعة لهم ولا لذة .

فلذلك كانت إضافة القرآن للأموال إلى أصحاب كسبها وإنتاجها ، واقتنائها وإحرازها ، أكثر من إضافتها إلى خالقها ورازقها ، فقال : ﴿ **وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾ [البقرة : ١٨٨] وقال : ﴿ **الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ [البقرة : ٢٦٢] وقال : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ** ﴾ [البقرة : ٢٦٧] وقال : ﴿**وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا** ﴾ [النساء : ٥] وقال : ﴿ **وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ** ﴾ [محمد : ٣٦] إلى غير ذلك من الآيات

www.abulhasanalinadwi.org

القرآنية التى أضيف فيها المال والكسب إلى الإنسان .

وقد وسع الله فى ذلك ، وكرّم الإنسان حتى سمّى ما ينفقه المسلم فى سبيل الله ، ويساعد به عباد الله قرضًا ، فقال : ﴿ **مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً** ﴾ [البقرة: ٢٤٥] وقال : ﴿ **إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ** ﴾ [التغابن : ١٧] وقال : ﴿**وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا** ﴾ [المزمل : ٢٠] .

كيف غرس القرآن فكرة الأمانة والخلافة فى نفوس المسلمين ؟ :

وقد كانت هذه الحقيقة التى قرّرها القرآن ، وهى حقيقة ملك الله المطلق ، وأنه هو المالك الحقيقى لكل ما وُجد فى هذه الأرض ، أو اكتسبه الإنسان وأحرزه ، تُسيطر على تفكير المسلمين الأولين ، وتتحكم فى حياتهم ، فلا يرون أنفسهم إلاّ أمناء مستخلفين فى هذه الأموال : فلا افتيات بالرأى ، ولا الحرّية المطلقة فى التصرّف فيها ، ولا

www.abulhasanalinadwi.org

رياء ولا فخر ، ولا أشر ولا بطر .

وقد غرس القرآن فكرة « الأمانة والخلافة » وأرسخها فى نفوسهم وعقولهم بطُرق شتى ، وأساليب تربوية حكيمة ، وأعلم المسلمين بأن هذه الأموال إذا كانوا اكتسبوها وتملكوها بكد اليمين وعرق الجبين ، وببراعتهم فى طرق الكسب ، وحذقهم فى الصناعات وأنواع التجارات، فقد انتقلت إلى الله تبارك وتعالى مرة ثانية بحكم ميثاق الإسلام، والتخلى لله تبارك وتعالى عن جميع الحقوق والدعاوى ، وهو الذى يقرره الإنسان ويقطعه على نفسه بدخوله فى الإسلام ، ونطقه بالشهادتين ، فلله أن يستردَّ وديعته متى شاء ، ويطلب سلعته التى اشتراها متى شاء ، فقال : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ** ﴾ [التوبة : ١١١] وأنذر من استحوذ عليه حب المال ، وآثر نفسه أو راحته وشهواته على الجهاد فى سبيل الله، وأداء حقوق الله ، ورأى لنفسه حقا وحرية فى التصرف فيه ، والضنّ به ، والحدب عليه ، فقال : ﴿**قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ**

www.abulhasanalinadwi.org

وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾
[التوبة: ٢٤]

وأنذر المسلمين كذلك بأن الإضراب عن الإنفاق فى سبيل الله بسخاء وعلو همّة ، وبذل النفس والنفيس لله تعالى ، وخذلان هذا الدين الذى به بقاؤهم وحياتهم ، وانتصارهم وازدهارهم سعىٌ فى هلاك النفس ، ومرادف لما يُسمّونه اليوم « الانتحار » فقال : ﴿ **وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [البقرة : ١٩٥] .

كيف آمن المسلمون الأوّلون بفكرة الأمانة والخلافة ، وكيف خضعوا لها ؟ :

وقد كانت هذه سيرة الصحابة رضى الله تعالى عنهم فيما كانوا يملكون من مال ومتاعٍ ، وعقار وملك ، وحرث ونسل ، وقد وضعوهاً تحت تصرّف رسول الله ﷺ

www.abulhasanalinadwi.org

ومصالح الإسلام ، قد كانت هذه سيرتهم فى مكة قبل الهجرة ، وقد مثّلها خير تمثيل أبو بكر الصديق ، وعثمان ابن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وصهيب الرومى ، وأبو سلمة ، وغيرهم من كبار المهاجرين وأغنيائهم ، وقد كانت هذه سيرتهم وسيرة الأنصار رضى الله تعالى عنهم فى المدينة .

وتجلّت هذه الفكرة والعاطفة بكل وضوح وقوة فيما قاله سعد بن معاذ قبل معركة بدر فقد جاء فى الخبر :

« ولما بلغ رسول الله ﷺ خروج قريش استشار أصحابه فتكلم المهاجرون فأحسنوا ، ثم استشارهم ثانيًا فتكلموا أيضًا فأحسنوا ، ثم استشارهم ثالثًا ، ففهمت الأنصار أنه يعنيهم ، فبادر سعد بن معاذ ، فقال يا رسول الله : كأنك تعرِّض بنا ، وكان إنما يعنيهم ، لأنهم بايعوه على أن يمنعوه من الأحمر والأسود فى ديارهم ، فلما عزم على الخروج، استشارهم ليعلم ما عندهم ، فقال له سعد: لعلك تخشى أن تكون الأنصار ترى حقا عليها أن لا تنصرك إلا فى ديارهم ، وإنى أقول عن الأنصار ، وأجيب عنهم : فاظعن حيث شئت ، وصل حبل من شئت ،

www.abulhasanalinadwi.org

واقطع حبل من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، وأعطنا ما شئت ، وما أخذت منا كان أحبّ إلينا مما تركت، وما أمرت فيه من أمر فأمرنا تبع لأمرك ، فو الله لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان لنسير معك ، ووالله لئن استعرضت بنا هذا البحر خضناه معك » (١) .

الحث على إنفاق الفضل فى سبيل الله وقيام المسلمين به فى نشاط وحماس :

ولما رسخت هذه العقيدة فى قلوب المسلمين ، وملكتهم هذه الفكرة والنظرة الخاصة إلى المال ، واعتباره مال الله الذى استخلفهم فيه ، وتغلغلت فى أحشائهم ، طلب منهم أن ينفقوا من أموالهم ما فضل وفاض عن حوائجهم « الشرعية الأساسية » فنزل : ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ** ﴾ [البقرة : ٢١٩] (٢) .

---

(١) زاد المعاد ــ ج١ ص١٣٦ ، ١٣٧ .

(٢) قال ابن كثير فى تفسير « العفو » ما يفضل عن أهلك ، وكذا روى عن ابن عمر ، ومجاهد ، وعطاء ، وعكرمة ، وسعيد ابن جبير ، ومحمد بن كعب ، والحسن ، وقتادة ، والقاسم، وسالم ، وعطاء الخراسانى ، والربيع ابن أنس وغير واحد ، أنهم قالوا فى قوله: « العفو » يعنى الفضل .

وقال ابن بطال فى تفسيره : أى ما فضل عن الكفاية .

www.abulhasanalinadwi.org

وامتثلوه وطبّقوه بنشاط وحماس ، فقد هان عليهم كل شيء بعد إقرارهم بأن المال مال الله ، وأنهم أمناء أوصياء ، حتى بلغوا إلى أن أنفقوا على خصاصة وحاجة، وآثروا غيرهم على أنفسهم وأولادهم ، وكان من خبر أبى طلحة الأنصارى ما كان ، وسجله قلم التاريخ مثالاً رائعًا للسخاء والإيثار يندر نظيره فى تاريخ المجتمعات البشرية ، فقد روى البخارى عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : أتى رجل إلى رسول الله ﷺ ، فقال : يارسول الله أصابنى الجهد ، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئا، فقال النبى ﷺ: « ألا رجل يضيف هذه الليلة رحمه الله » فقام رجل من الأنصار ، فقال : أنا يا رسول الله ! فذهب إلى أهله ، فقال لامرأته: هذا ضيف رسول الله ﷺ لا تدخريه شيئًا ، فقالت : والله ماعندى إلا قوت الصبية ، قال : فإذا أراد الصبية العشاء ، فنوّميهم وتعالى ، فأطفئى السراج ، ونطوى بطوننا الليلة ، ففعلت ، ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ ، فقال : « لقد عجب الله عز وجل — أو ضحك — من فلان وفلانة » وأنزل الله تعالى :

www.abulhasanalinadwi.org

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾

[الحشر : ٩] (١) .

الزكاة بمعنى الإنفاق والصدقات :

وقد جاء ذكر « الزكاة » فى السور المكية ، وهى لا تعنى غير الإنفاق والصدقات ، فقال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ [المؤمنون : ١ ـ ٤] وقال : ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ . الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ [فصلت: ٦، ٧] وقد ذُكرت فى تعاليم الرسول وفضائل الإسلام ، أمام بعض ملوك العصر ، وقد قال جعفر بن أبى طالب فى مجلس النجاشى « وأمرنا أن نعبد الله وحده ، لا نشرك به شيئًا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام » (٢) وذلك فى العام الخامس بعد البعثة .

---

(١) قد جاءت تسمية هذا الأنصارى فى صحيح مسلم بأبى طلحة.

(٢) سيرة ابن هشام .

www.abulhasanalinadwi.org

الحاجة إلى نظام معين للزكاة وتشريع يوافق الطبقات والعصور :

ولما بلغ المجتمع الإسلامى غايته من رسوخ العقيدة والتربية الخلقية ، والطاعة والانقياد، والسخاء والإيثار، والتجرّد من الأنانية الفرديّة والجماعية ، وقوى الإسلام بأهله وإيثار أتباعه، وتوسع هذا المجتمع، وتنوعت فيه الأنماط البشرية والمستويات الخلقية والروحية ، ففيه الغنى والفقير والمتوسط بينهما، وفيه السخى الأريحى، الذى هوايته فى الإنفاق والإيثار ، وفيه الشحيح ،وفيه المقتصد والمتوسط، وكان ما يشرع فى هذا المجتمع من أحكام ، وما يطالب به من أعمال ، هى الشريعة الخالدة العامة العالمية التي يمتثلها المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها، وفى أوائل العصور وأواخرها ، وفى بداية المدنية وبساطتها، وفى أوجها وتعقدها ، ومع القوة الإيمانية التى تحتمل أكبر مغامرة ، وتهوّن أعظم تضحية وتسيغ أكبر مشكلة ، ومع ضعف الإيمان الذى قد يوجد فى أطراف العالم الإسلامى البعيدة ، وفى الأجيال المسلمة المتأخرة اقتضت حكمة الله ولطفه بعباده ، أن يُشرع للزكاة نظامًا

www.abulhasanalinadwi.org

مبين الحدود واضح المعالم معيّن النصاب، معلوم المقادير والأعداد ، ويكون وسطًا بين الكثير والقليل ، لا يستهين به الأغنياء الأسخياء أولو الهمم، ولا يقصر عنه المتوسطون أو دون المتوسطين ممن استوفى شروطها.

وأن لا يوكل ذلك إلى الرأى ، ولا إلى همة الأفراد وطموحهم ، ولا إلى الانفعالات الوجدانية العاطفية التى تكون فى مدّ وجزر، وقوة وضعف ، ولا إلى تشريع المشرعين، وحكمة العلماء والحكام ، فلا ثقة بها فى كل زمان ومكان، ولا يؤمن عليها من اتباع الهوى والأغراض، ففرضت الزكاة ، وحدّدت نصبها ، ومقاديرها (١) .

---

(١) نرجح أن فرض الزكاة وقع بعد الهجرة، وكان ذلك قبل السنة الخامسة على الأرجح، فقد جاء ذكرها كفريضة ، وركن من أركان الإسلام ، فى حديث ضمام بن ثعلبة ، وفى حديث وفد عبد القيس، (وكان قدومه فى السنة الخامسة)، وفى مخاطبة أبى سفيان مع «هرقل»، وكانت فى أول السابعة، ومما يدل على ذلك ما ثبت عند أحمد، وابن خزيمة، والنسائى، وابن ماجه، والحاكم من حديث قيس بن سعد بن عبادة، قال: «أمرنا رسول الله ﷺ بصدقة الفطر ، قبل أن تنزل الزكاة، ثم نزلت فريضة الزكاة، فلم يأمرنا، ولم ينهنا ونحن نفعله »وإسناده صحيح، وصدقة الفطر تابعة لرمضان وصومه ، وكان فرضه فى السنة الثانية من الهجرة، والآية الدالة على فرضيته، مدنية بلا خلاف .

www.abulhasanalinadwi.org

وقد أحسن شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى بيان حكمة التعيين والتحديد فى أحكام الزكاة ونظامها ، فقال :

«ثم مسّت الحاجة إلى تعيين مقادير الزكاة، إذ لولا التقدير ، لفرط المفرط ، ولاعتدى المعتدى، ويجب أن تكون غير يسيرة لا يجدون بها بالاً، ولا تنجع من بخلهم، ولا ثقيلة يعسر عليهم أداؤها، وإلى تعيين المدة التى تجبى فيها الزكاة، ويجب أن لا تكون قصيرة يسرع دورانها، فتعسر إقامتها فيها، وأن لا تكون طويلة لا تنجع من بخلهم، ولا تدر على المحتاجين والحفظة ، إلا بعد انتظار شديد، ولا أوفق بالمصلحة من أن يجعل القانون فى الجباية ما اعتاده الناس فى جباية الملوك العادلة من رعاياهم، لأن التكليف بما اعتاده العرب والعجم، صار كالضرورى الذى لا يجدون فى صدورهم حرجا منه، والمسلم الذى أذهبت الألفة عنه الكلفة أقرب من إجابة القوم وأوفق للرحمة بهم[1] .

(١) حجة الله البالغة ج٢ ــ ص٣.

www.abulhasanalinadwi.org

فيم تجب الزكاة ؟ وحكمة التفاوت بين النصب والمقادير:

وحدد رسول الله ﷺ مقدار الزكاة والأموال التى تجب فيها ، ونصاب هذه الأموال ، الذى يجب فيه الزكاة وزمن وجوبها (١) ، فجعلها فى أربعة أصناف من المال، وهى أكثر الأموال دورًا بين الخلق ، أحدها: الزرع والثمار، الثانية: بهيمة الأنعام: الإبل والبقر والغنم، الثالث: الجوهران اللذان بهما قوام العالم ، وهما الذهب والفضة، الرابع: أموال التجارة على اختلاف أنواعها (٢) .

قال الإمام ابن القيم وهو يتكلم فى مصلحة اختيار الأموال التى تجب فيها الزكاة، وحكمة التفاوت بين نُصبِها، وحكمة تعيين الزمن الذى تجب فيه الزكاة، وهو حولان الحول، فى كتابه النفيس «زاد المعاد»:

« ثم إنّه أوجبها مرة كل عام، وجعل حول الزروع

---

(١) اقرأ الأحاديث الواردة فى كل ذلك، فى كتب الصحاح ، واقرأ شرحها والبحث فيها، وفهم فقهاء الإسلام لها فى كتاب «نيل الأوطار» للعلامة محمد بن على بن محمد الشوكانى (المتوفى ١٢٥٠هـ) .

(٢) ملتقط من زاد المعاد ـ ج١ ـ ص ١٤٥ .

www.abulhasanalinadwi.org

والثمار عند كمالها واستوائها، وهذا أعدل ما يكون، إذ وجوبها كل شهر أو كل جمعة، يضرّ بأرباب الأموال ، ووجوبها فى العمر مرة ممّا يضرّ بالمساكين ، فلم يكن أعدل من وجوبها كل عام مرة، ثم إنّه فاوت بين مقادير الواجب بحسب سعى أرباب الأموال فى تحصيلها ، وسهولة ذلك ومشقته، فأوجب الخمس فيما صادفه الإنسان مجموعا محصلا من الأموال، وهو الرّكاز ، ولم يعتبر له حولاً، بل أوجب فيه الخمس متى ظفر به، وأوجب نصفه، وهو العشر فيما كانت مشقة تحصيله وتعبه وكلفته فوق ذلك، وذلك فى الثمار والزروع التى يباشر حرث أرضها، وسقيها، وبذرها، ويتولىّ الله سقيها من عنده بلا كلفة من العبد، ولا شراء ماء، ولا إثارة بئرٍ ودولاب، وأوجب نصف العشر فيما تولى العبد سقيه بالكلفة والدوالى والنواضح وغيرها ، وأوجب نصف ذلك، وهو ربع العشر(١) فيما كان النماء فيه موقوفًا على عمل متصل من رب المال بالضرب فى الأرض تارة، وبالإدارة تارة، وبالتربص تارة. ولا ريب أن كلفة هذا أعظم من كلفة

(١) يعنى ٢,٥ بالمائة .

www.abulhasanalinadwi.org

الزرع والثمار أيضًا، فإن نمو الزرع والثمار أظهر وأكثر من نمو التجارة ، فكان واجبها أكثر من واجب التجارة ، وظهور النمو فيما يسقى بالسماء والأنهار، أكثر ممّا يسقى بالدوالى والنواضح ، وظهوره فيما وجد محصلاً مجموعًا كالكنز أكثر وأظهر من الجميع .

ثم إنه لما كان لا يحتمل المواساة كل مال وإن قلّ، جعل للمال الذى يحتمل المواساة نُصبا مقدّرة، المواساة فيها لا تجحف بأرباب الأموال وتقع موقعها من المساكين فجعل للورق مائتى درهم، وللذهب عشرين مثقالا (١) ، وللحبوب والثمار خمسة أوسق (٢) ، وهى خمسة أحمال

---

(١) وكل مثقال كان يعادل فى زمن رسول الله ﷺ دينارًا، وكل دينار كان فى زمنه بعشرة دراهم بالتقويم تعادل عشرين مثقالا (أوعشرون دينارًا) مائتى درهم، وهكذا تعادل نصاب الذهب والفضة ، واعتمد على ذلك فى التشريع بطبيعة الحال، وكان المعيار فى الزكاة في كل عصر ومصر.

ومائتا درهم تعادل بالتقويم ستة جنيهات استرلينية ، فى هذا العصر وعشرون مثقالا (أو عشرون دينارًا) تعادل ١٢,٥ ليرة ذهبية عثمانية أو ١١ جنيها بالعملة المصرية .

(٢) «الوسق ستون صاعًا، وكل صاع ثمانية أرطال » .

وهذا مذهب مالك ، والشافعى ، وأحمد ، وأكثر العلماء، فيعتبرون النصاب فيما تخرجه الأرض،وهو خمسة أوسق، فليس عندهم فى أقل =

www.abulhasanalinadwi.org

من أحمال إبل العرب ، وللغنم أربعين شاة، وللبقر ثلاثين، وللإبل خمسًا » (١) .

حكمة مواضع الزكاة وتوقيتها :

ويزيد ذلك شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم

= من ذلك زكاة، وذهب ابن عباس، وزيد بن على، والنخعى، وأبو حنيفة إلى العمل بالعام ، فقالوا : تجب الزكاة فى القليل والكثير، ولا يعتبر النصاب، والخلاف دائر على بحث أصولى، فليرجع إلى كتب الاستدلال للمذاهب، وكتب أصول الفقه، وأحكام القرآن.

وقد ذكر شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى حكمة هذه المقادير التى جعلتها الشريعة نصابًا تجب على من يملكه الزكاة ، فقال : «إنما قدر من الحب والتمر خمسة أوسق ، لأنها تكفى أقل أهل بيت إلى سنة ، وذلك لأن أقل البيت ، الزوج ،والزوجة والثالث خادم ، أو ولد بينهما، وما يضاهى ذلك من أقل البيوت ، وغالب قوت الإنسان رطل ، أو مد من الطعام ، فإذا أكل كل واحد من هؤلاء ذلك المقدار كفاهم لسنة ، وبقيت بقية لنوائبهم ، أو إدامهم وإنما قدر من الورق خمس أواق (يعنى مائتى درهم)، لأنها مقدار يكفى أقل أهل بيت سنة كاملة ، إذا كانت الأسعار موافقة فى أكثر الأقطار، واستقرئ عادات البلاد المعتدلة فى الرخص والغلاء»(حجة الله البالغة ج٢ ــ ص٣٢).

(١) ملتقط من كتاب « زاد المعاد » ج١ ــ ص٢٤٦ .

www.abulhasanalinadwi.org

الدهلوى إيضاحًا ويشرح حكمة اختيار مواضع الزكاة وتوقيتها ، فيقول :

« والأبواب التى اعتادها طوائف الملوك الصالحين من أهل الأقاليم الصالحة ، وهو غير ثقيل عليهم ، وقد تلّقتها العقول بالقبول ، أربعة :

الأول: أن تؤخذ من حواشى الأموال النامية ، فإنها أحوج الأموال إلى الذب عنها، لأن النمو لا يتم إلا بالتردّد خارج البلاد ، ولأن إخراج الزكاة أخف عليهم ، لما يرون من التزايد كل حين فيكون الغُرم بالغنم ، والأموال النامية ثلاثة أصناف ، الماشية المتناسلة السائمة ، والزروع ، والتجارة .

والثانى : أن تؤخذ من أهل الدثور والكنوز ، لأنهم أحوج الناس إلى حفظ المال من السرّاق وقطاع الطريق ، وعليهم إنفاقات لا يعسر عليهم أن تدخل الزكاة من تضاعيفها .

والثالث : أن تؤخذ من الأموال النافعة التى ينالها الناس من غير تعب كدفائن الجاهلية وجواهر العاديين [١] ،

(١) يعنى القدماء .

www.abulhasanalinadwi.org

فإنها بمنزلة المجّان يخفّ عليهم الإنفاق منه .

والرابع : أن تلزم ضرائب على رؤوس الكاسبين فإنهم عامة الناس وأكثرهم ، وإذا جبى من كل منهم شىء يسير كان خفيفًا عليهم ، عظيم الخطر فى نفسه .

ولما كان دوران التجارات من البلدان النائية وحصاد الزروع ، وجنى الثمرات فى كل سنة ، وهى أعظم أنواع الزكاة قُدر الحول لها ، ولأنها تجمع فصولاً مختلفة الطبائع وهى مظنّة النماء ، وهى مدة صالحة لمثل هذه التقديرات .

والأسهل والأوفق بالمصلحة أن لا تجعل الزكاة إلا من جنس تلك الأموال فتؤخذ من كل صرمة من الإبل ناقة ، ومن كل قطيع من البقر بقرة ، ومن كل ثلة من الغنم شاة مثلاً » (١) .

مصارف الزكاة ، وقيام نظامها الاجتماعى :

وبيّن الله تبارك وتعالى مصارف الزكاة فى آية من سورة براءة ، وهى قوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ**

(١) حجة الله البالغة ــ ج٢ ــ ص ٣٠ .

www.abulhasanalinadwi.org

وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : ٦٠] (١) وقد كان نزول سورة براءة بعد فتح مكة. وقد استقرّت دعائم الإسلام ، وبدأ الناس يدخلون فى دين الله أفواجًا ، فقام نظام الزكاة الاجتماعى(٢) ، وبعث

---

(١) راجع تفسير هذه الكلمات ومعرفة مدلولها وما فيه من أقوال ومذاهب «أحكام القرآن » للإمام أبى بكر أحمد بن على الرازى الجصاص الحنفى (المتوفى سنة ٣٨٠هـ) ، « أحكام القرآن » للقاضى أبى بكر بن العربى المالكى (م سنة ٥٤٢هـ) وكتب التفسير والفقه للمذاهب الأربعة .

وهذه المصارف المنصوصة فى القرآن باقية دائمة مع بقاء حكم الزكاة إلا المؤلفة قلوبهم ، فقال أكثر الأئمة وفقهاء الإسلام : قد سقط سهمهم بانتشار الإسلام وغلبته ، واستدلوا على ذلك ، بامتناع أبى بكر من إعطائهم ، وقد ذهب بعض الفقهاء إلى جواز التأليف . ويعجبنى فى ذلك قول القاضى أبى بكر بن العربى : والذى عندى: إن قوى الإسلام زالوا ، وإن احتيج إليهم أعطوا سهمهم ، كما كان يعطيه رسول الله ﷺ . فإن الصحيح قد روى فيه « بدأ الإسلام غريبًا ، وسيعود غريبًا كما بدأ » (أحكام القرآن ــ ص٣٨٥).

(٢) كان ذلك فى السنة التاسعة للهجرة . قال الإمام أبو جعفر الطبرى : « ثم دخلت سنة تسع . . . . . وفى هذه السنة فرضت الصدقات . وفرق فيها رسول الله ﷺ عماله على الصدقات» (تاريخ الطبرى الجزء الرابع من =

www.abulhasanalinadwi.org

رسول الله ﷺ السعاة والعاملين على الصدقات يتسلّمون هذه الصدقات من أصحابها ، وبيّن رسول الله ﷺ أحكام تحصيلها وآدابه ، وأوصاهم فى ذلك وصايا ، تتجلى فيها الحكمة مع الرحمة ، والمصلحة الاجتماعية بجوار المصلحة الفردية[١] وقد بعث معاذ بن جبل رضي الله عنه إلى اليمن فى العام العاشر الهجرى [٢]، وأوصاه وصية ، أصبحت أساس قانون الزكاة ومنشورها الرسمى ، قال له:

« إنك تأتى قومًا من أهل الكتاب ، فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله ، وأنى رسول الله . فإن هم أطاعوك لذلك ، فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة ، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم،

= المجلد الأول . مطبعة بريك ليدن ـ ص١٧٢٢) وقد وهم رحمه الله فى قوله: فرضت الصدقات . فقد سبقت فرضيتها بسنين ، كما قدمنا . وإنما كان فى هذه السنة بعث العمال على الصدقات . وتفريقهم فى الأمصار .

(١) اقرأ هذه الوصايا والتوجيهات النبوية فى دواوين الحديث والسيرة .

(٢) ذكره البخارى فى أواخر المغازى .

www.abulhasanalinadwi.org

فإن هم أطاعوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم ، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب » (١) .

مصالح الزكاة الأساسية :

اعتاد كثير من الكتاب الإسلاميين المعاصرين الذين خضعوا فى قليل أو كثير للنظم الاقتصادية الحديثة ، وأهمية علم الاقتصاد وسيطرته على جميع النظم ومناهج التفكير فى هذا العصر ، أن يفيضوا ويسترسلُوا فى مصالح الزكاة الاقتصادية والاجتماعية ، وما تعود به على المجتمع الإسلامى من فوائد ومنافع ، واعتبروها ــ وبالأصح يفهم القارئ لكتاباتهم وبحوثهم أنهم يعتبرونها ــ جباية مالية من أعدل الجبايات ، وأكثرها اتزانًا واعتدالاً فى جميع الجبايات التى عرفها تاريخ الاقتصاد فى العالم ، ولذلك يعتبرون أنها أكبر أساس ، وأقوى دعامة « للاشتراكية » التى يعتقدون أن الإسلام دعا إليها وتحققت فى أفضل عصوره ، وكادوا

(١) رواه الجماعة عن ابن عباس رضي الله عنه .

www.abulhasanalinadwi.org

يغفلون ـ إلا من عصم الله ووفقه ـ روح الزكاة التى تسيطر عليها ، وهى روح العبادة والتقرب إلى الله ، وحكمتها الأساسية الأولى ، وهى حكمة تزكية النفس من الشح والحرص ، والأثرة وحب المال ، وظلم حقوق الفقراء وقسوة النفس وتزكية المال وتنميته ، وحلول البركة فيه برضا الله سبحانه وتعالى وقبوله ، وبفضل مواساة الفقراء الضعفاء ، وانعطاف قلوبهم ورقتها ودعائهم ، وقد ذكر الله هذه المصلحة الأساسية ، ونوه بها فى القرآن، ويكاد القرآن يقتصر عليها ، فقال مخاطبًا للرسول ﷺ : ﴿ **خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا** ﴾ [التوبة : ١٠٣] وقال مقارنًا بين الربا والزكاة ، ﴿**وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ**﴾ [الروم: ٣٩] وقد أخرج أبو داود عن ابن عباس ، عن النبى ﷺ ، قال : «إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب ما بقى من أموالكم».

وتلى هذه المصلحة الأساسية مصلحة الجماعة

www.abulhasanalinadwi.org

والمجتمع ، وهى كفالة المجتمع ، الكفالة اللازمة الضرورية ، وسد حاجات الفقراء الطبيعية البدائية ، وتهيئة كل عضو من أعضاء المجتمع أسباب الحياة الشريفة التى يستطيع بها القيام بحقوق الله وحقوق النفس ، والوصول إلى الكمال المطلوب ، والغاية المطلوبة من كل فرد مسلم .

وقد كان العلماء الذين كانت دراستهم للإسلام والكتاب والسنة ، دراسة أصيلة عميقة ، ولم يعرفوا إلا مدرسة النبوة التى يتتلمذون عليها، ويتخرجون فيها ، والذين أتوا البيوت من أبوابها فى فهم الإسلام وفقه الكتاب والسنة ، يراعون الترتيب بين هذه المصالح ، وينزلون كل واحدة منها منزلتها التى عيّنها الكتاب والسنة ، وفهمها الصحابة رضي الله عنهم وتلقّاها المسلمون جيلاً بعد جيل ، وهنا ننقل نماذج من ذلك لبعض كبار علماء الإسلام :

يقول شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى ، وهو يبحث فى مصالح الزكاة الرئيسية ، وحكمة التشريع فيها :

www.abulhasanalinadwi.org

« واعلم أن عمدة ما روعى فى الزكاة مصلحتان : مصلحة ترجع إلى تهذيب النفس ، وهى أنّها أحضرت الشح ، والشح أقبح الأخلاق ، ضار بها فى المعاد ، ومن كان شحيحًا ، فإنه إذا مات بقى قلبه متعلقًا بالمال ، وعذِّب بذلك ، ومن تمرّن بالزكاة ، وأزال الشح من نفسه ، كان ذلك نافعًا له .

وأنفع الأخلاق فى المعاد بعد الإخبات لله تعالى ، هو سخاوة النفس ، فكما أن الإخبات يعدّ للنفس هيئة التطلع إلى الجبروت ، فكذلك السخاوة تعدّ لها البراءة عن الهيئات الخسيسة الدنيوية ، وذلك لأن أصل السخاوة قهر الملكية البهيمية ، وأن تكون الملكية هى الغاية ، وتكون البهيمية منصبغة بصبغها ، آخذة حكمها ، ومن المنبهات عليها بذل المال مع الحاجة إليه ، والعفو عمن ظلم ، والصبر على الشدائد فى الكريهات ، بأن يهوّن عليه ألم الدنيا لإيقانه بالآخرة ، فأمر النبى ﷺ بكل ذلك ، وضبط أعظمها ، وهو بذل المال بحدود ، وقرنت بالصلاة والإيمان فى مواضع كثيرة من القرآن ، وقال تعالى عن أهل النار :

www.abulhasanalinadwi.org

﴿ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ . وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ . وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴾ [المدثر : ٤٣ ـ ٤٥] .

ومصلحة ترجع إلى المدينة ، وهى أنها تجمع لا محالة الضعفاء وذوى الحاجة ، وتلك الحوادث تغدو على قوم ، وتروح على آخرين ، فلو لم تكن السنة بينهم مواساة الفقراء وأهل الحاجات لهلكوا وماتوا جوعًا ، وأيضًا فنظام المدينة يتوقف على مال ، يكون به قوام معيشة الحفظة الذابين عنها ، والمدبرين السائسين لها ، ولما كانوا عاملين للمدينة عملاً نافعًا ، مشغولين به عن اكتساب كفافهم ، وجب أن يكون قوام معيشتهم عليها . والإنفاقات المشتركة ، لا تسهل على البعض ، أو لا يقدر عليها البعض ، فوجب أن تكون جباية الأموال من الرعية سنة .

ولما لم يكن أسهل ولا أوفق بالمصلحة من أن تجعل إحدى المصلحتين مضمومة بالأخرى ، أدخل الشرع إحداهما فى الأخرى » (١) .

---

(١) حجة الله البالغة ـ ج٢ ص٢٩ ، ٣٠ .

www.abulhasanalinadwi.org

ويقول العلامة بحر العلوم اللكهنوى [١] :

« إن الزكاة ليست غرامة ، بل عبادة خالصة لله تعالى كسائر العبادات » .

« لا بد فى أداء الزكاة من النية ، لأن الزكاة عبادة عظمى ، أحد أركان الإسلام كالصلاة ، لا يقصد منها إلا الثواب ، فلابد من النية وإن أدى بلا نية لا يتأدى الزكاة كالصلاة ، لأن الصلاة تلغو بلا نية ، بخلاف الزكاة من دون النية ، فإنها تصير هبة ، وينال ثواب الهبة، لأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً » [٢] .

سماتُ « الزكاة » البارزة :

وللزكاة المشروعة فى الإسلام سمات تميزها عن أنواع الجبايات والإتاوات ، التى تفرضها الحكومات أو

---

(١)هو العلامة عبد العلى محمد ابن العلامة نظام الدين السهالوى اللكهنوى ، كان إمامًا جوالاً فى الأصول والمنطق . ومن أشهر مؤلفاته (فواتح الرحموت ، شرح مسلم الثبوت) ، توفى سنة ١٢٢٥ هـ) .

(٢) رسائل الأركان ــ ص١٦٣ .

www.abulhasanalinadwi.org

المجتمعات، أو تُسن فى القوانين الوضعية البشرية ، وتجعل لها هذه السمات طابعًا خاصًا ، وطبيعة خاصة وتضفى عليها قدسًا دينيًا ، وتجعل لها تأثيرًا فى الحياة والأخلاق، وفى الصلة بين العبد وربِّه ، لا يوجد ــ ولا يمكن أن يُوجد ــ فى الجبايات وأنواع الضرائب والإتاوات، مهما بلغت من العدل والنزاهة ، والخفة والضآلة .

التبشير والإنذار :

فمن أبرز هذه السمات ، ومن أعمقها فى التأثير ما يقترن بهذه الفريضة ، ويرافقها من روح الإيمان والاحتساب[1]، وهى الروح التى تتجرد منها الضرائب الرسمية ، والجبايات القانونية بطبيعة الحال ، بل بالعكس من ذلك ترافق هذه الأخيرة روح المقت والسآمة والسخط، والاستثقال والاستكثار ، فإن دافع هذه الضرائب لا يعتقد أنها مشروعة من الله ، ولا يرجو عليها أجرًا وثوابًا ، بل يعتقد فى أكثر الأحيان أن مصدرها تشريع أفراد مثله أو

(١) سبق شرحها فى موضوع الصلاة ، راجع بحث « التطهر وما يورثه من اهتمام » .

www.abulhasanalinadwi.org

أخس منه ، وتنفق فى كثير من الأحيان فى الأهواء والشهوات ، وفى المحافظة على السلطات ، أو لخدمة أشخاص معدودين ، أو أحزاب محدودة ، ثم لا يُرافق هذه الأحكام والتشريعات شىء من الترغيب والترهيب الدينيَّين ، بل يتبعها تهديدات وغرامات زمنية ، أو مناشير ومراسيم قاسية جافة ، تزيد دافعها كراهة وسخطًا ، وتذمرًا ومقتًا .

ولهذه الحكمة البالغة التى لا يقدر عليها إلاَّ العلى الحكيم ، جاءت الزكاة فى القرآن والحديث ، وفى التعليمات النبوية مقرونة بالفضائل ، وما لها من نتائج فى الدنيا والآخرة ، وما وعد الله لفاعلها من الأجر والثواب ، والنمو والبركة فى المال ، والعقاب الأليم لمن امتنع عنها ، ومحق ماله .

فيقول الله تعالى : ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى لَّهُمْ**

www.abulhasanalinadwi.org

أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : ٢٦١ ، ٢٦٢] ويقول : ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : ٢٧٤] ويقول : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٧] ويقول : ﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ [الحديد : ١١] ويقول : ﴿ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ [الحديد : ١٨] ويقول : ﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾ [الروم : ٣٩] والآيات فى ذلك كثيرة .

وكذلك تبع هذا التبشير الذى هى حاجة الإنسانية ومقتضى الطبيعة البشرية ، إنذار وتخويف على اكتناز

www.abulhasanalinadwi.org

الأموال ، وحيازتها من الفقراء وذوى الحاجات ، والامتناع من أداء حق الله وحق الفقراء فى هذه الأموال التى تفيض عن الحاجة وتتكدس عند أصحابها ، تسلية بها ، وتطاولاً وشحًا وحرصًا ، فقال : ﴿ **وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ** ﴾

[التوبة : ٣٤ ، ٣٥] .

وعلى هذا النسق الحكيم جرى لسان النبوة الأخيرة ، ففاض الحديث النبوى ببشارات ووعود كريمة على أداء الزكاة ، وآثارها الطيبة فى المال والنفس ، وفى الدنيا والآخرة .

فمن ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ ، قال : «ما تصدق أحد بصدقة من طيِّب ــ ولا يقبل الله إلاَّ الطيِّب ــ إلاَّ أخذها الرحمن بيمينه وإن كانت تمرة ، فتربو

www.abulhasanalinadwi.org

فى كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل كما يربى أحدكم فلوه أو فصيله» (١) وعنه قال : قال رسول الله ﷺ: « بينما رجل فى فلاة من الأرض ، فسمع صوتا فى سحابة : اسقِ حديقة فلان ، فتنحى ذلك السحاب فأفرغ ماءه فى حرَّة ، فإذا شرجة من تلك الشراج ، وقد استوعبت ذلك الماء كله ، فتتبع الماء ، فإذا رجل قائم فى حديقة يحوّل الماء بمسحاته ، فقال : يا عبد الله ، ما اسمك؟ قال : فلان ! للاسم الذى سمع فى السحابة . فقال : يا عبد الله . لِمَ سألتنى عن اسمى ؟ قال : سمعت صوتًا فى السحاب الذى هذا ماؤه ، يقول : اسقِ حديقة فلان ، باسمك . فما تصنع فيها ؟ قال : أما إذا قلت هذا فإنى أنظر إلى ما يخرج منها فأتصدق بثلثه وآكل أنا وعيالى ثلثه وأرد فيه ثلثه » (٢) وقال : قال رسول الله ﷺ : «ما نقص مال من صدقة ، أو قال : ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًا ،وما تواضع عبدٌ لله إلا رفعه الله» (٣) وعنه ، رفعه ، قال : « ما من يوم يصبح

---

(١) للستة إلا أبا داود . (٢) لمسلم .

(٣) لمسلم والترمذى والموطأ .

www.abulhasanalinadwi.org

فيه العباد إلا ملكان ينزلان ، يقول أحدهما : اللهمّ أعط منفقًا خلفًا ، ويقول الآخر : اللهمّ أعط ممسكا تلفا » (١) ومنها ، ماروت عائشة أُم المؤمنين ، قالت: إنهم ذبحوا شاة ، فقال النبى ﷺ: « ما بقى منها ؟ » قالت : ما بقى منها إلا كتفها قال : « بقى كلها ، إلا كتفها»(٢) .

وكذلك أنذر الرسول ﷺ مانعى الزكاة ، ومن لا يؤدى حق الله والفقراء فى ماله ، بالعقاب الشديد فى الآخرة ، وبالنتيجة الوخيمة فى الدنيا ،فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ :«من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مُثِّل له ماله يوم القيامة شجاعًا أقرع له زبيبتان يطوّقه يوم القيامة ، ثم يأخذ بلهزمتيه ، يعنى شدقيه، ثم يقول : أنا مالك ، أنا مالك ، أنا كنزك ، ثم تلا « ولا يحسبنّ الذين يبخلون الآية » (٣) وعنه أنه قال : قال رسول ﷺ :« إذا اتخذ الفىء دولاً ، والأمانة مغنما ، والزكاة مغرمًا ، وتعلم لغير الدين ، وأطاع الرجل امرأته،

---

(١) للشيخين . (٢) للترمذى .

(٣) رواه البخارى.

www.abulhasanalinadwi.org

وعقّ أمّه ، وأدنى صديقه ، وأقصى أباه ، وظهرت الأصوات فى المساجد ، وساد القبيلة فاسقهم ، وكان زعيم القوم أرذلهم ، وأُكرم الرجل مخافة شرّه ، وظهرت القينات والمعازف وشربت الخمور ، ولعن آخر هذه الأمة أوّلها ــ فارتقبوا عند ذلك ريحًا حمراء ، وزلزلة ، وخسفًا، ومسخًا، وقذفًا ، وآيـات تتابـع كنظـام قـطع سلكه فتتابـع» (١) .

وقد كانت نتيجة هذه الفضائل ، وما جاء فى القرآن والحديث فى الترغيب والترهيب ، أن المسلمين كانوا رقباء أنفسهم ، وكانوا سعاة بيت المال المتطوّعين ، ووكلاء فقراء المسلمين ، فى أموالهم ، وحرثهم ، ونسلهم ، فكانوا يبحثون عن المصارف ، ومستحقى الزكاة بحثًا أمينًا دقيقًا ، ويتحرّون مواضعها ، ويحرصون على أداء ما يجب عليهم من حقّ الله ، فلا يطيب لهم عيش ، ولا يهنأ لهم طعام حتى يتخلّوا عن ذلك ، ومن تتبّع حياة الصحابة رضي الله عنهم ، ودرس سيرتهم وسيرة التابعين لهم بإحسان ، رأى مواقفهم

(١) رواه الترمذى .

www.abulhasanalinadwi.org

فى ذلك ، وعرف ما بلغ الإيمانُ وأخبار الترغيب والترهيب من نفوسهم ، حتى أصبحت بذلك الزكاة كالصلاة ، التي يحرص على أدائها المسلم ، ويحافظ عليها بدقّة ، ولا يقرُّ له قرار حتى يقوم بها.

وقد فطن لأهميَّة هذه الفضائل ، وما لها من فضل فى إثارة الشعور الدينى ، علماء الإسلام ، فحرصوا على إيراد هذه الفضائل والترغيب والترهيب فى كتبهم ، وأشادوا بها فى مواعظهم وخطبهم ، وكان لها التأثير المطلوب فى المجتمع الإسلامى ، فلولا هى لتعطّل أداء الزكاة ،ولهجر المسلمون القيام بها بأنفسهم ، بعد ما تركت الحكومات الإسلامية المطالبة بها ، والإشراف عليها .

وقد أحسن شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى الإشارة إلى أهميَّة هذه الفضائل ومكانتها فى التشريع الإسلامى . فقال :

« ثم مسَّت الحاجة إلى بيان فضائل الإنفاق والترغيب فيه ، ليكون برغبة وسخاوة نفس ، وهى روح الزكاة ، وبها قوام المصلحة الراجعة إلى تهذيب النفس ، وإلى بيان

www.abulhasanalinadwi.org

مساوئ الإمساك والتزهيد فيه ، إذ الشح هو مبدأ تضرر مانع الزكاة ، وذلك إما فى الدنيا ، وهو قول الملك: اللهم أعط منفقًا خلفا ، والآخر: اللهمّ أعط ممسكًا تلفا، قوله ﷺ :« اتقو الشحّ ، فإن الشحّ أهلك من قبلكم» الحديث، وقوله ﷺ : « إن الصدقة لتطفئ غضب الرب » وقوله ﷺ: «إن الصدقة تطفئ الخطيئة ، كما يطفئ الماء النار »وقوله ﷺ : «فإن الله يتقبَّلها بيمينه ، ثم يربيها لصاحبها» الحديث» (١) .

تؤخذ من أغنيائهم وتردّ على فقرائهم :

والسمة الثانية البارزة التى تميِّز الزكاة عن سائر الجبايات والضرائب، التى كانت تُفرض فى زمن الملوك والسلاطين، وفى عهد الحكومات الشخصية ، أو فى عصرنا الحاضر فى الجمهوريات وحكومات الشُّعوب، وتجعلها تختلف عنها اختلافًا واضحًا فى البداية والنهاية ،وفى النتائج والآثار، هى وضعها الشرعى الذى قرّره الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بلفظه المعجز الحكيم ، وتعبيره النبوى الدقيق الذى

(١) حجة الله البالغة ج٢ ص ٣٠ ، ٣١ .

www.abulhasanalinadwi.org

يُعدّ من جوامع الكلِم . فقال: «تؤخذ من أغنيائهم، وترد على فقرائهم »، وذلك وضع الزكاة الأصيل الشرعى الذى كانت عليه، ويجب أن تكون عليه، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فهى تؤخذ من الأغنياء الذين يستوفون شروط وجوبها، ويملكون النصاب المعيَّن المنصوص ، وتصرف فى مصارف عيَّنها الله تعالى فى القرآن ، ولم يكلها إلى رأى مشترع أو مقنِّن، أو حاكم أو عالم، وهو قوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ** ﴾ الآية [التوبة: ٦٠]، وتفضِّل الشريعة ، وترجح الأحاديث النبويَّة أن تصرف هذه الصدقات على فقراء البلد الذى تجبى فيه.

وكذلك كان نظام الزكاة حتى فى الحكومات التى لم تكن دقيقة كلّ الدقة ، ولا أمينة كلّ الأمانة فى تطبيق الأحكام الشرعية ، وتحقيق المُثل الإسلامية العليا فى الحكم والسياسة . فلم يُحرم الفقراء والمساكين حقّهم فى ظلّ هذه الحكومات ، ولم تتعطّل حدود الله كلّ التعطّل (١) ، فى

(١) كتاب الخراج لقاضى القضاة ، الإمام أبى يوسف ومقدمته بصفة خاصة برهان ساطع على ما كان من اهتمام فى أوج الدولة العباسية بأحكام الخراج والزكاة والصدقات فإنه كتب هذا الكتاب العظيم باقتراح من أمير المؤمنين «هارون الرشيد».

www.abulhasanalinadwi.org

هذه الحكومات ، التى يبالغ كثير من المؤرخين المغرضين، والباحثين المستشرقين فى ذمها، وانحرافها عن تعاليم الإسلام ، بل ثورتها عليها ، كما يقولون .

وبالعكس من ذلك ، الجبايات والضرائب والمكوس، التى تفرضها الحكومات اليوم ، فهى صورة مقلوبة معكوسة للزكاة ، فهذه الضرائب ـ العادلة منها والمجحفة، والصغيرة منها والضخمة ـ تؤخذ من الفقراء وأوساط النَّاس ، وتُردّ على الرؤساء والأغنياء والأقوياء، إنَّها تجتمع بعرق جبين الفلاّحين ، والعملة والصنَّاعين، والتجار الذين يشتغلون ليلَ نهار فى متاجرهم ودكاكينهم، وتُصرف هذه الأموال بسخاء بل بقسوة نادرة ، ووقاحة زائدة فى استقبال رؤساء الجمهوريات الزائرين للبلاد ، وفى ولائمهم التى تُشبه ولائم «ألف ليلة وليلة » الخياليّة الأسطورية وفى المهرجانات التى يُحتفل بها بين حين وحين، وفى مآدب السفارت فى البلاد الأجنبية التى تجرى فيه الخمر جرى الأنهار، وفى دعايات الحكومة التى تستنفدُ موارد الشعب وتمتصُّ دماءه ، وتحول بين رجل الشعب وقوته ، وفى جعالات الصحفيين الأجانب، ووكالات الأنباء، ورواتب

www.abulhasanalinadwi.org

المذيعين البارعين الذين حذقوا فن تلفيق الأخبار ، واتهام الأبرياء، وتشريح الأحياء من المنافسين والأعداء وتكاليف الصحف التى تُعتبر أهم وأنفع من أقوى الجيوش، وأحدث الأسلحة ، فما من حكومة شعبيّة ديمقراطية ، ولا من حكومة شيوعيّة أو اشتراكية ، إلا وهى تمتصّ دم الشعب كالأسفنج، وتصبّه فى بحر الدعاية والرشاء السياسى ، والتلبيس الصحفى، ومحاكمة المعارضين ، من المجرمين وغير المجرمين ، فلا أدقّ تصويرًا ولا أصدق تعبيرًا فى وصف هذه الضرائب ، التى تقوم عليها الحكومات اليوم من قولنا إنَّها «تؤخذ من فقرائهم وتردُّ على أغنيائهم» لذا كانت الزكاة الإسلامية التى فرضها الله على عباده الموسرين لطفًا ورحمة بالأمة ، ونتيجة لنعمة النبوَّة التى لا نعمة فوقها ، ضريبة إذا كان لابدّ من إطلاق هذه الكلمة أقل الضرائب مقدارًا وأخفها مؤنة ، وأعظمها يُمنًا وبركة ، وأكثرها فائدة ، لأنها « تؤخذ من أغنيائهم وتردّ على فقرائهم» .

www.abulhasanalinadwi.org

روح التقوى والتواضع والإخلاص :

والسمة الثالثة المميزة للزكاة، هى روح الإخلاص ، والتواضع والامتنان (لا المنّ) والإكرام الذى يجب أن يقترن به أداءُ الزكاة ، ويتصف به صاحبها وهى الآداب الدقيقة والأخلاق السامية النبيلة ، والروح الدينيّة التى حثّ عليها القرآن وأشاد بها ، ووصف كرام القائمين بهذه الفريضة بالتَّلبُّس بها، فتارة نهى المتصدّقين وأصحاب الخير والبرّ ، عن أن يكدّر أعمالهم ، ويُقلّل من قيمتها المنّ والأذى ، فقال فى الأسلوب القرآنى المعجز : ﴿ **الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ . قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ** ﴾ [البقرة: ٢٦٢ ـ ٢٦٤] .

www.abulhasanalinadwi.org

وتارة مدح أصحاب الخير والبر بروح التواضع والإشفاق الذى يسيطر عليهم عند اشتغالهم بهذه الخيرات وتلبُّسهم بها ، فقال : ﴿ **وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ** ﴾ [المؤمنون : ٦٠] وقال : ﴿ **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ** ﴾ [المائدة : ٥٥] (١) وتارة مدح القائمين بهذه المبرَّات وأعمال المواساة بالإخلاص التام ، والتجرد عن الأغراض المادية أو المعنوية ، فقال : ﴿**وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا . إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا . إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا** ﴾ [الدهر : ٨ ــ ١٠] .

وكذلك حثَّ على أن يكون حظ الله وحظ عباده الفقراء من المال الطيِّب الكريم الذى ترغب فيه النفس ،

---

(١) قال العلامة أبو حيان الأندلسى فى «بحر المحيط » : «والركوع هنا ظاهره الخضوع لا الهيئة التى فى الصلاة » جـ٣ص٥١٤ .

www.abulhasanalinadwi.org

ويكرم به الرجل لا من المرذول الردىء الذى يُزهد فيه ويُستهان بقيمته ، فقال : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ** ﴾ [البقرة : ٢٦٧] .

وفى الحديث : أن عائشة أرادت أن تتصدَّق بلحم منتن ، فقال لها النبى ﷺ: « أتتصدقين بما لا تأكلين؟! »(١).

وبالعكس من ذلك الجبايات التى تجبيها الحكومات ــ عدلاً أو ظلما ــ تتجرد من هذا الروح الخلقى والتعبدى ، وعن تواضع النفس ، والخوف على العمل من الرياء وعدم الإخلاص ، وتحرِّى المال الطاهر الطيِّب الأثير الكريم، ففى غالب الأحيان تقترن هذه الجبايات بروح المقت والضجر والاحتيال القانونى ، وتعمُّد المال الذى جاء من طرق غير شرعية، وتلك طبيعة الأحكام والقوانين العلمانية الزمنية، التى لا تسندها عقيدة ، ولا فكرة دينية ، أو قدسى روحى .

(١) رواه أحمد .

www.abulhasanalinadwi.org

الفرق بين الزكاة والربا :

إن الزكاة والربا يتناقضان «على خط مستقيم » فهما من الأضداد المعنوية ، والمتناقضات الخلقية ، التى تفترق من بدايتها ، ولا تلتقى إلى النهاية، فدوافع الواحد منهما تناقض دوافع الآخر، وكذلك الأهداف والغايات، وكذلك الآثار فى النفس ، وفى الفرد والجماعة، وفى المجتمع الإنسانى بصفة عامة .

فروح الزكاة خشية الله وطاعته، وابتغاء رضوانه، والمواساة والعطف على الفقراء والرثاء لأحوالهم ورقة القلب، والإخلاص والتجرد عن الأغراض ، حين كان روح الربا معصية الله ، ومبارزته بالحرب ، وقسوة القلب، والشح المفرط ، والنهامة المسرفة للمال، وتضخمه وتناسله[1] من كل طريق ، وانتهاز فرصة حاجة الفقير الملحَّة ، واستغلال فقره وضعفه.

وحين كانت نتيجة الزكاة ، وأثرها النفسى زيادة

(١) ذلك لأن مال المرابى يلد المال، ويبيض ويفرخ من غير مقابل، من جهد أو تجارة ، حتى يكون أضعافا مضاعفة .

www.abulhasanalinadwi.org

الإيمان، وانشراح القلب، وطيب النفس والرسوخ فى الكرم والنّبالة، والسخاء والسماحة ، كانت نتيجة الربا انقباض النفس ، وقسوة القلب ، وبلادة الروح وشراسة الخُلق، والضراوة باللحم الإنسانى وماء الوجه ، وديباجة الحياة الإنسانية ، وانتهاك كرامتها ، والتمتع والالتذاذ بمواضع الضعف والعجز فى المجتمع والحياة .

وحين كانت نتيجة الزكاة فشوّ روح المواساة والكرم فى المجتمع، وانتشار الغنى فى أعضائه ، والبركة فى الأموال، والألفة فى القلوب، والتحابب فى النفوس ، والثقة بين الأفراد، كانت نتيجة الربا تكدس مال المجتمع، وحصيلة جهود أعضائه فى مكان واحد، أو فى فرد واحد، أو فى أفراد فى أقل عدد ممكن، فكان المرابى فى هذا المجتمع، هو الحوض الصغير الذى تنتهى إليه جميع السواقى فى هذا البلد، ويبقى من غير ماء، أو كجبل المغناطيس الذى جاءت قصته فى رحلات سندباد البحرى فى «ألف ليلة وليلة »، الجبل الذى يقال: إن سفينة رماها الطوفان إليه، فجعل الربان يبكى وينوح، فسُئل عن السبب، فقال: ابتلانا الله بجبل المغناطيس الواقع فى هذا البحر. وإنه سيجر جميع

www.abulhasanalinadwi.org

المسامير الحديدية ، فتتحطم السفينة وتتناثر ألواحها وأجزاؤها ، فيلقمها البحر. وكذلك كان، فالمرابى، أو جماعة المرابين فى بلد يملكون ذلك المغناطيس «المال» الذى يجتذبون به جميع المسامير والروابط التى تربط أجزاء الحياة وقوائمها ، بعضها ببعض ، فتتناثر هذه الأجزاء، وتتفكك هذه العرى والروابط، وينزف جسم المجتمع دمه القانى الأصيل ، ويُصاب بالسل الخُلقى والاقتصادى، فإذا عاش، عاش مسلولاً مشلولاً ، وإذا مات، مات حزينًا سليبًا .

وكذلك نتيجة الربا : التباغض بين الأفراد، وزوال الثقة المتبادلة فى المجتمع، وفشو روح السخط والتشاؤم، والشماتة بين المتعاملين بالربا، وبين الفقراء والأغنياء، ووجود طبقتين متميزتين تمام التميز، كانت إحداهما من جنس البشر ، والأخرى من الحيوانات والدواجن، وهما طبقة الأثرياء ثراء فاحشًا، وطبقة الفقراء فقرًا مدقعًا .

لذلك يذمُّ القرآن الربا ذما شديدًا ، ويشنِّع عليه ويقبِّح تصويره ، بمقدار ما يمدح الزكاة ويحث عليها، بل قد يكون تشنيعه على الربا ، وذمّه له أقوى وأعنف ، من مدحه

www.abulhasanalinadwi.org

للزكاة والصدقات، وذلك أسلوب القرآن الحكيم فى العقائد المنحرفة ، والأخلاق الذميمة، والأعمال القبيحة . فكانت صيغته لذمِّ الربا ، وعبارته فيه من أشد أساليب الذم والإنكار ، وأفظعها ، الأسلوب الذى تقشعر له الأبدان، وتنخلع منه القلوب، وهو قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ**﴾ [البقرة:٢٧٨ ، ٢٧٩]. وصور آكل الربا تصويرًا دقيقًا يثير المقت والكراهة فى نفس القارئ المؤمن، فيقول : ﴿ **الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ [البقرة : ٢٧٥] .

وقد قارن القرآن بين الربا والصدقات ، وآثارهما ونتائجهما، فى أكثر من موضع ، فقال فى إيجاز ، هو

www.abulhasanalinadwi.org

الإعجاز، وفى لفظ يحتاج تفسيره إلى مجلد ضخم ، وإلى استعراض تاريخ علم الاقتصاد، وما آل إليه أمر البلاد والمجتمعات التى عاملت بالربا فقال: ﴿ **يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ** ﴾ [البقرة:٢٧٦] . وقال: ﴿ **وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ** ﴾ [الروم:٣٩] .

وكذلك فعل الرسول ﷺ ـ وكان خلقه القرآن ـ فمدح الزكاة والصدقات ، وذكر آثارها ونتائجها فى المال وفى جماعة المسلمين ، وقد مرَّت الأحاديث التى وردت فى البركة فى المال الذى يتصدق منه ، وإعانة العبد المتصدق من الله ، وبالعكس من ذلك ، أنذر على منع الزكاة بالعقوبة العاجلة فى الدنيا ، فقد روى بريدة عنه، قال: «ما منع قوم الزكاة إلا ابتلاهم الله بالسِّنين » (١) .

وهكذا أنذر على الربا والمعاملة به بالعقوبات فى

---

(١) للأوسط .

www.abulhasanalinadwi.org

الدنيا، والعذاب فى الآخرة ، فقال: «ما من قوم يظهر فيهم الربا ، إلا أخذوا بالسنَة ، ما من قوم يظهر فيهم الرشا، إلا أخذوا بالرعب» (١) . وقال : «لعن الله آكل الربا، وموكله وكاتبه، ومانع الصدقة » (٢) وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ :« أتيت ليلة أُسرى بى على قوم، بطونهم كالبيوت، فيها الحيّات ترى من خارج بطونهم، قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء أكلة الربا » (٣) وقال: « إذا أراد الله بقرية هلاكًا أظهر فيهم الربا»(٤) .

ومن اطَّلع على تاريخ المجتمع الإسلامى، ودرسه من النّاحية الخلقيَّة، ومن ناحية تطبيقه للأحكام الشرعيَّة، والأوامر الإلهية ، وما جرّ ذلك عليه من يمن وبركة، وأمن وسلامة ، وسعادة ورخاء. وإخلاله بالشريعة ، وتعطيله للحدود والفرائض، وما جرَّ ذلك عليه من بلاء وشقاء،

---

(١) رواه الحاكم فى المستدرك ، والنسائى فى السنن.

(٢) رواه الحاكم فى المستدرك ، والنسائى فى السنن.

(٣) رواه أحمد وابن ماجه .

(٤) كنز العمال مرويًا عن أبى هريرة رضي الله عنه ج٢ص٢١٣.

www.abulhasanalinadwi.org

ومن ضيق وضنك، صدَّق هذه الأخبار النبويَّة الصادقة، وهذه الأحاديث الواردة، وصدق الله العظيم : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧] ، وقال : ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه: ١٢٤].

الإصلاحات التى قام بها الإسلام فى تشريع الزكاة :

قام الإسلام بدوره الإصلاحى ، فى قانون الزكاة وأحكامها، كما قام بدوره الإصلاحى فى سائر الأركان ، كالصلاة ، والصيام ، والحج ، وجاءت شريعة الزكاة وأحكامها كافلة بجميع المصالح الفرديَّة والاجتماعية، مبرَّأة من كل تحريف وفساد، أدخلتهما الأمم السابقة، وتلوثت بهما الأديان المحرفة.

الصدقات فى الديانات الأخرى:

إن الذى اعتاد المنهج العلمى التشريعى ، الذى يشتمل على حدود وقوانين وأحكام فقهيَّة، وتفاصيل قانونية فى

www.abulhasanalinadwi.org

الشريعة الإسلامية بما فيها من كتاب وسنّة وكتب فقهيَّة، يفاجأ بحيرة ، وشعور بالإخفاق، إذا بحث عن مثل هذا القانون المعيَّن المحدود ، واضح المعالم ، معلوم الحدود ، لفريضة الزكاة ، أو الصدقات وفى أسفار الديانة الهندكية وفى كتب العهد القديم أو العهد الجديد ، أو فى تلمود، ويكتشف أنَّها مقتصرة على مواد مبعثرة ، وأحكام هى أشبه بالتوجيهات الخُلقيَّة أو الروحيَّة ، أو بوصايا عامة، منها بأحكام فقهيَّة ، أو تفاصيل قانونية ، فلا يطلع بعد البحث الدقيق على مباحث أساسيَّة تعطى لهذه الفريضة صورة فقهيَّة قانونية .

فمثلاً، إذا حاول أن يعرف على من تجب الزكاة وفيما تجب؟ وما هو نصابها؟ وما هو القدر الواجب ، وما هى مصارفها بالضبط ، أو من يستحقها وتدفع إليه؟ أسئلة تكفّلت كتب السنَّة والفقه فى الإسلام بالإجابة عنها، وتكوَّنت فى تفصيلها هذه المكتبة الفقهيَّة الهائلة فى الإسلام، لم يجد جوابا شافيًا ، ولا يرجع الباحث فى المقال الخاص بالزكاة أو الصدقات ، charity فى دائرة معارف الديانات والأخلاق بطائل كبير فى هذا الموضوع

www.abulhasanalinadwi.org

رغم دراسة الكاتبين المختصين له دراسة واسعة ، وتتبعهم للمراجع القديمة تتبُّعًا دقيقا .

ويواجه الباحث المسلم هذا الوضع الغريب المختلف عن الوضع الإسلامى الفقهى فى كل باب من أبواب الفقه فى كل ديانة قديمة تقريبًا ، فتصعب الدراسة المقارنة للإسلام والديانات القديمة فى العبادات والمعاملات، وأبواب الفقه والأحكام.

« الصدقات » فى الديانة الهندوكية :

نقدم أولاً ملخص المقال الذى كتبه الأستاذ (A.S. GEDEN) فى «دائرة معارف الأخلاق والديانات» حمل فكرة الصدقات فى الديانة الهندوكية ، وأنواعها وطرقها ووضعها فى مختلف أدوار التاريخ ، إنها محاولة دراسية موضوعية إلى حد كبير، اكتفى فيها صاحب المقال بعرض المبادئ والنظريات فحسب، ولم يتعرض للنقد والمقارنة والاستنتاج. إنه يقول:

«الصدقة واجب دينى عند الهنادك ، وهى تختلف عن الصدقات عند الغربيين فى المبدأ والتطبيق لعدة اعتبارات

www.abulhasanalinadwi.org

وجيهة، إن الصدقة بدافع البر والمؤاساة والرفق والعطف، لا توجد فى الديانة الهندوكية، ولكن مع ذلك إن تقاليد الأريحية والسخاء، واشتراكية العقارات والأموال، وسد حاجات الفقراء والمساكين عامة فى هذه البلاد لا يدانيها أى بلد آخر فى هذا المضمار، وذلك طبيعى، فإن الجماعات التى تجول فى طول البلاد وعرضها عالة على المتصدقين لا يمكنها أن تستمر فى عملها الدائب ، إلا إذا كانت على ثقة بأنها ستنال نصيبها من الرزق ، وذلك لا يتيسر طبعًا إلا فى مكان عمّت فيه هذه الفكرة، ونالت رواجًا وتطبيقًا فى المجتمع ، لقد قال «منّو» : إن السخاء والعطاء واجب على الجميع فى هذا العهد، ولكنهم حصروا الذين ينالون الصدقات والإعانات فى طبقة خاصة هى طبقة البراهمة ، وبعض طوائف النساك المعروفة الأخرى، فهم وحدهم يستحقون المنح والعطاء والصدقة (DAKSHINA) دون طوائف المجتمع الأخرى، أما جزاء هذه الصدقة وثوابها فهو على مقدارها وكميتها.

وهكذا حملت الصدقات فى الهند هدفًا دينيا ، وهو

www.abulhasanalinadwi.org

الجزاء الحسن فى الحياة الثانية [١] والحصول على المنافع الذاتية، إن التعليمات الدينية للهنادك، وكتبهم الدينية لا تعنى كثيرًا بالسخاء المخلص الذى يتجرَّد عن كل غرض وفائدة، ولكن أكثر الهنادك تجاوزوا عن ديانتهم فى هذا المجال. أما الفكرة الغربية للصدقة والبر ، فإنها لا توجد هنا إلا فى بعض الطوائف من النساك الذين يبذلون بعض الوقت فى إغاثة الملهوفين وإسداء الخير ، ولا ريب أن هذه الأعمال لا تخلو من تأثير تعاليم بوذا الرقيقة الأريحية، إن سدنة المعابد الكبار يقيمون مآدب غنية فى الأعياد الدينية الخاصة للزائرين والضيوف، غير مبالين بالنفقات الباهظة، ولكن الفكرة الأساسية فى كل هذه الأمور والتصرفات هندية ، وليست غربية أو مسيحية، الحق أنّ الكهنة والنسّاك

(١) لا ينبغى أن ينسى القارئ أن الديانة الهندوكية تدين بالتناسخ والانتقال المستمر من حياة إلى حياة ، بحسب الأعمال والأخلاق فى الحياة السابقة ، وقد يكون ذلك بالظهور فى صور حيوانات مختلفة بحسب تلك الأعمال والأخلاق.

www.abulhasanalinadwi.org

لابدَّ أن يعاهدوا على السخاء والعطاء، ويجب عليهم أن يتصدّقوا بكتبهم إذا لم يجدوا شيئًا آخر، ولكن الأمر بالعكس عمليا ، فإنهم يأخذون فى معظم الأحوال ولا يعطون ، أما فى الجماهير وغير البراهمة ، فإنهم يملؤون هذا الفراغ بتقاليد الأسر المشتركة ، حيث تلزم فيها الصدقات فى عدة مناسبات ، وتكون الجماعة مسئولة عن الفرد الجائع الملهوف .

وكانت فكرة الصدقات تحتلّ مكانة محترمة ملحوظة فى عقول الشعراء فى زمن الأدعية المقدسة «لويدا» فيتغنى الشعراء بأجر المتصدّق وعلو منزلته، ويلهجون بذلك ، وتحتل الصدقات المكانة الأولى فى الحقوق والواجبات التى تعود على أصحاب الأسر ، فى الأدب الويدى، وفى صحف الأزمنة الأخرى، وكتبها الدينية، ودقّقت فى تحديد الطبقات التى تستحق هذه الصدقات، وإن كانت الآراء قد اختلفت فى هذا التحديد والوصف، إنّ «منّو» وضع فى هـذا الباب أسسًا ومبادئ وأحكامًا واضحة تأثرت بهـا

www.abulhasanalinadwi.org

التقاليد الهندوكية (فى نطاق الصدقات) تأثرًا بالغًا.

وعلاوة على تلك النواحى التى تأثرت فيها التقاليد الهندوكية بالتقاليد الغربية ، فإنها اعتبرت هذه الصدقات DHARMASTHAM يعنى وسائل الأجر والثواب، وقد خصّ SKUNDPURNA بابًا كاملاً لمبادئ الصدقة ، كما خص HEMADRI النصف الأخير من كتابه لهذه القضية وحدها .

وهكذا عاش عامة النسّاك الهندوكيين عالة على الصدقات، إنَّ أمثال هذه الجماعات تحيا حياة بؤس وضيق وجهاد فى الغرب، ولكن بالعكس إن النسّاك الهنديين لا يكسبون عيشهم بكدّ اليمين وعرق الجبين ، ولا يقدرون على ذلك ، إن نظام التسوّل الواسع النطاق الذى وصفناه، توارثته الأجيال فى الهند منذ زمن عريق فى القِدم، ولاشك فى أن عبء هذا الجيش من المتجولين والمتسولين كان ثقيلاً على الطبقات الكادحة الفقيرة فى المجتمع فى جميع الأحوال .

إنّ الديانة البوذية ورثت فكرة الصدقة من البرهمية، إنها طوَّرت فكرة الصدقة للذين يهبون حياتهم للدّين،

www.abulhasanalinadwi.org

ووسعت أُسسها ومبادئها، إنَّ SAK YAMUNI (يعنى بوذا) نفسه كان فى «حياته الأولى » DAM ASURA يعنى بطل الجود والسخاء، ولذلك لم تكن هذه التقاليد والعادات غريبة على الكيان الخلقى والاجتماعى فى الديانة البوذية ، أما الديانة الجينيّة فإنها لم تعترف بهذا الحق المبالغ فيه للبراهمة، ولكنها ألقت مسئولية كل فرد من النسّاك على الشعب، إنّ أى واحدة منهما (أعنى الجينية والبوذية) لم تُشرع مبدءًا جديدًا ، بل إنهما اعترفتا بتقليد الصدقة والبر للذين يعلمون مبادئ الدين، وتمسكتا به عبر القرون.

وكانت هذه العطايا والمنح تنقسم إلى نوعين: الأول وقف العقارات «الأبنية والبيوت » وغلات القرى، أو دفع العشر من دخل الفرد فى الصدقة، وكان البراهمة ـ علاوة على ذلك ـ ينالون الشىء الكثير من الصدقات فى الأعياد والمهرجانات الدينية، والتقاليد الاجتماعية نقودًا وطعامًا، ويدخل فى ذلك ما يأخذه المتسوّلون المتجولون من متاع وأثاث من القرويين الجهلاء بسبب عقائدهم الخرافية التى يدينون بها، وبما كان يساورهم من خوف ووجل، إذا منعوا هذه الصدقات ، وردّوا هؤلاء المتسوّلين خائبين محرومين.

www.abulhasanalinadwi.org

وكان عدد الصدقات التى كانت تعتبر أفضل الصدقات MHADAN يتراوح بين عشرة وستة عشر نوعًا، أهمها الذهب وتليه الأبنية وغلاّت القرى، ونحو ذلك، وكان أهم نوع من صدقة الذهب الذى يعلوها قيمة وأجرًا ما يسمى بـ : TULAPURSA أو TULADAN كان المعطى يزن نفسه بالذهب ، ثم يقسم ذلك الذهب فى البراهمة الموجودين، ويقال: إن أميرًا هندوكيًا فى «قنوج» تصدق مائة مرة بهذه الصفة ، وذلك فى القرن الثانى عشر الميلادى، وقدم هذا النموذج وزير فى ولاية صغيرة فى «بهار» تسمى MITAHALA فى القرن الرابع عشر ، وقد ذكر الرحالة الصينى المعروف بـ هوئن سوانج HIVEN TSANG أخبارًا عجيبة مدهشة لملك قنوج SILADITYA فقد كان يتصدق بكل ما كان يملكه من أسباب ومتاع بعد كل خمس سنوات، وكانوا يستبدلون الفضة بالذهب أحيانًا وكانت البقرة المصنوعة بالذهب ، أو زهرة «كنول» ظاهرة هامة فى التقليد الذى يسمى بـ: «الزنّار» . وكانت هذه البقرة تحطم عند نهاية مهرجان خاص بهذا التقليد تكسر وتوزّع فى البراهمة، أو توقف على معبد، وكان الأمراء

www.abulhasanalinadwi.org

والأغنياء يهبون أوانى الذهب والفضة المستعملة لضيوفهم، أما الوقف على زوايا البراهمة من محصول الأرض ونحوه، فإنه من التقاليد القديمة فى الهند، يجب ذكرها فى حفريات «أشوكا». ويروى أن هذا الملك منع قسرًا عن هذا الإسراف فى الصدقات والعطايا فى الأيام الأخيرة من حياته، الذى كاد يودى بنفسه وأسرته.

إنّ هذا النوع من الصدقة على البراهمة وزواياهم ليس شيئًا غير عادى حتى اليوم، فإطعام البرهمى لا يزال يعتبر برًا، لاسيما إذا كثر عددهم، وهى ظاهرة توجد إلى حدّ ما فى كل تقليد عائلى ، أو مهرجان ولادة أو مأدبة، أما فى الأعياد المشهورة ، فكان يتسع هذا النطاق كثيرًا ، حيث يتوافد إليها جماعات كثيرة من الزوّار والنسّاك ، ويقمن عدة أيام ، ويُستشهد على ذلك بشخصية USAVADATA الذى عاش فى القرن الأول (كما يقولون) لقد دلّ أثر تاريخى عثر عليه فى غار قديم أنه كان يفتخر بأنه كان يسدّ حاجات مائة ألف من البراهمة ، ويتصدق بمائة ألف بقرة، وست عشرة قرية، وحدائق ونحو ذلك ، نحن نجد فى العصور القديمة عددًا من الملوك ، يكفلون عددًا من.

www.abulhasanalinadwi.org

البراهمة زمنًا طويلاً أو مدى الحياة ، فكانت جماعات من النساك تنعم وتترفه بالأوقاف والعقارات والأموال، شأن الزوايا والتكايا فى القرون المتوسطة فى أوربا، وقد يدخل معظم إيراد المملكة وأملاكها فى حوزة هؤلاء النسّاك ، وفى ملكهم، إنّ العادة المتبعة الشائعة فى شمال الهند من تقديم مال مقرر أو عشر دخل الفرد إلى جماعات النسّاك أو «المعلّم» الذى يمتاز فى نوع من العلم ، ويتزعم مدرسة فكرية ، قليلة بالنسبة إلى جنوب الهند ، والحق أن سلطان رجال الدين فى الشمال ضئيل بالنسبة إلى الجنوب، فإنهم يحصلون على الأموال بحكم القانون وقوة اليد، ويستخدمون فى ذلك كل طريقة ممكنة، هؤلاء الزعماء الروحيون ورجال الدين ، يتجولون فى مدن خاصة ، ويطالبون بهذا المبلغ المقرر لهم المعترف به عند الجميع.

إن الأوقاف التى تُحبس على الأمور الخيرية ، هى التى تَدرُّ على المؤسسات الدينية فى جنوب الهند ، وتقوم بنفقاتها ، وبكفالة النساك والعبّاد المقيمين فيها، أما فى شمال الهند، فلا يوجد فيه هذا النظام بهذا الشكل الواسع، والعناية الفائقة .

www.abulhasanalinadwi.org

وكان هناك مبدأ خاص ، وهو أن لا يتصدّق الإنسان بكل ما يملك فيصبح عائلاً فقيرًا، وأن لا تتجاوز صدقة البقرة ألف بقرة، وكانت هناك آداب وأحكام لأنواع أخرى من الصدقة ، وأن لا يقبل أحد تلك الصدقة التى رفضها البرهمى، وأن لا يتصدق فى نفس اليوم الذى قبض فيه، أما مستحقو الصدقات فقد جرى تصنيفهم بحسب استحقاقهم، منهم من يحرم دفع الصدقات إليه، ويأثم فاعله، وكان الواجب على كل هندكى ينتمى إلى أصل شريف أن يهب كل ماله ومتاعه للبراهمة، إذا قضى مدة معينة من حياته العائلية ، ورزق ولدًا يبقى به نسله، وأن يغادر مسكنه ومأواه ويتوجه إلى الغابات ويعيش فيها عيشة VANAPRASTHA ثم يكون ناسكًا يجمع قوته وطعامه بالتكفف ، والوقوف على الباب، هؤلاء النسّاك لا يجوز لهم أن يمكلوا شيئا ، إنهم يحملون كشكولاً من نارجيل، وكوبًا من ماء، وعصًا ، وسبحة طويلة فى العنق، وقد نجد من أفراد الطبقة المثقفة فى العصر الحديث رجالاً وسَّع الله لهم فى الرزق ، واتسعت لهم الدنيا ، قد رفضوا أسباب الحياة وزهدوا فيها، ووهبوا حياتهم الأخيرة للفقر والمراقبة

www.abulhasanalinadwi.org

الدينية .

وهناك نوع آخر قديم من الصدقة ، هو تقديم المنح والعطايا لمستشفيات الحيوانات ، إن هذه المؤسسات والمستشفيات قديمة جدًا ، فى بعض الأماكن يعنى فيها بالأبقار المريضة الضعيفة الهزيلة ، وتجد فيها العلف ، والماء، والمأوى ، وذلك شيء يتبرع له الصالحون بكل سخاء ، ويتبرع له المؤمنون المتحمسون يوميًا ، وأعتقد أن مقدار هذا النوع من الصدقة كثير جدًا فى هذه البلاد [1] .

إن هذا الاقتباس يدلُّ قارئ الكتاب على أن البراهمة كانوا هم المحور الوحيد الذى يدور حوله هذا النظام الكبير للصدقات ، والذى يمتدّ على حقبة طويلة فى التاريخ ، ورقعة كبيرة من الأرض ، ويردف البراهمة النسّاك ، وهكذا نشأت فى المجتمع الهندوكى ــ من غير شعور وإدراك ــ طبقة بقيت عالة فى كل شيء على الصدقات والإعانات ، وعاشت غنية بالاستجداء والتكفف ، أما ما جرّ ذلك من قبائح خلقية ، واستغلال وانتهازية ، وتواكل

(1) Encyclopadia of Religions and Ethicsvol. I.

www.abulhasanalinadwi.org

وكسل ، وبطالة ، وإخلاد إلى الراحة ، فهو شيء طبيعى لا يعسر فهمه أو تقديره على الوجه الصحيح .

إن حياة التسوُّل هذه لم تكن (ولو قيل أنها من خصائص عصر التدهور) محمودة فى هذا المجتمع فحسب، بل كانت لازمة لها ، وواجبة لتزكية النفس ولذلك اعتبروا الاستجداء والتكفف وسيلة فذة للسمو الروحى، وصفاء النفس ، وأصبح من واجبات الحياة اليومية لبعض الطبقات ، هذه الطبقة من النسَّاك المتكففين (بهبونحى) توجد فى البلاد التى أغلبيتها من البوذيين ، وفى بورما خاصة تجلب هذه الظاهرة أنظار الأجانب [١] ، وقد أحدث عددهم المتزايد فى هذه البلاد ، وبطالة جزء كبير من المواطنين بطالة تامة ، وأوضاعهم الخلقية والاجتماعية مشكلات وعقدًا فى حياة البلاد .

وفى جانب آخر اختص أكبر جزء من هذه الصدقات

---

(١) سافر مؤلف الكتاب فى عام ١٩٦٠م إلى (بورما) ، وزار (رنجون) و (ماندلى) وبعض الأماكن التاريخية المشهورة ، ورأى هذا النوع من الناس عن كثب ، وشاهد حياتهم اليومية، واطلع على مناظر من التسول لا ينساها .

www.abulhasanalinadwi.org

والعطايا بالبقرة فحسب ، من أجل تقديسها ، وعقيدة التناسخ التى لم تزل شعار الديانات الهندكية ، وأنفقت عليها مبالغ باهظة بخست حق ذوى الحاجة من بنى آدم ، وأفراد الأسرة البشرية التى كرّمها الله .

ويبدو لنا أنّ هذا النظام وما فيه من التعاليم الدينية ، والتوجيهات ، ينقصه ذلك التنظيم والتحديد ، والضبط الذى تتسم به الديانات السامية كلها بوجه التقريب ، فنجد فى هذا النظام حرية كاملة فى الاختيار ، ومرونة مفرطة للأوضاع ، وخضوعًا زائدًا للملابسات الزمنية والمحلية ، جعله مختلفًا عن الآخر باختلاف البيئات والأقاليم ، فكأنها أجزاء متناثرة لديانات مختلفة متنافرة .

الصدقات فى اليهودية :

يقول العلامة السيد سليمان الندوى ، رحمه الله ، فى كتابه المشهور سيرة النبى (المجلد الخامس) تحت عنوان «الزكاة فى الأديان الماضية » :

« الزكاة أيضًا من العبادات التى فرضت فى سائر الأديان السماوية ، ولكن أتباع هذه الأديان تناسوا هذه

www.abulhasanalinadwi.org

الفريضة ، حتى لم يبقَ لها اسم ولا رسم فى قائمة الأحكام والتعاليم الدينية لهذه الأديان ، مع أن القرآن يعلن بصراحة ، وبتصديق الصحف السماوية أن الزكاة كانت جزءًا لازمًا لهذه الأديان مثل الصلاة تمامًا ، فالميثاق الذى أخذ من بني إسرائيل احتوى على الصلاة والزكاة معًا . يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ [البقرة: ٤٣] ويقول فى موضع آخر :

﴿ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ ﴾ [المائدة : ١٢] ويذكر إسماعيل عليه السلام ، فيقول :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا . وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾ [مريم : ٥٤ ، ٥٥] ويقول على لسان عيسى عليه السلام : ﴿ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ [مريم : ٣١] .

إنّ التوراة تدلُّنا على أن عُشر محصول الأرض والأنعام

www.abulhasanalinadwi.org

كان وجبًا على بنى إسرائيل ، ونصف مثقال من الدينار لمن كان فى عشرين من عمره ، أو فوق العشرين غنيًا كان أم فقيرًا . جاء فى الخروج : « كل من اجتاز إلى المحدودين من ابن عشرين سنة فصاعدًا ، يعطى تقدمة للرب ، الغنى لا يكثر ، والفقير لا يقلل عن نصف الثاقل ، حين تعطون تقدمة الرب للتكفير عن نفوسكم » (الخروج : ٣٠ ـ ١٤ ـ ١٥) وكانوا يتركون بعض السنابل فى المزارع والحقول عند الحصاد ، وبعض الثمار فى الأشجار ، فكان ذلك زكاة يؤدونها بعد كل ثلاث سنوات ، وكان هذا المال يدفع إلى بيت مال القدس ، ينال واحدًا من الستين منه رجال الدّين ، أما العشر ، فكان يناله اللاوييون من آل هارون ، وكان يوقف عُشره لضيافة الوافدين والحجاج ، وينفق على إطعام عامة المسافرين والفقراء ، والأيامى واليتامى يوميًا » (١) .

أما الأموال التى كانت تجبى بزكاة نصف مثقال ، فكانت تدفع إلى خيمة الاجتماع (أو مسجد القدس)،

(1) Charity Incyclobedia Britanica Edition II.

www.abulhasanalinadwi.org

فكانت تنفق فى شراء أوانى المذبح والآلة »

(الخروج : ٣٠) [١] .

إن اليهودية (التى قامت على أساس التعاليم النبوية على كل حال ، والتى عاشت تحت ظلال النبوة أكثر من جميع الأديان التى نشأت فى النسل الآرى) أقرب إلى تعاليم الإسلام ، وقيمه ومفاهيمه ، وأحكامه ، بالنسبة لهذه الأديان بطبيعة الحال ، إن اليهودية لم تنظر إلى حياة البطالة نظرة إعجاب واستحسان ، ولم تشجعها شأن الديانة الهندوكية التى مضى ذكرها ،بل إنها بالعكس حاولت إيجاد الثقة بالنفس والاعتزاز فى الفقراء والمساكين ، يقول بنسيرا (BANSIRA): « إن العيش فى كوخه المصنوع من قصب أفضل كثيرًا من الراحة والهناء فى بيت غيره ، التجوُّل والتسوُّل آفة كبيرة » (SIRA -22-24-29) ، وأما ما قيل فى فضائل الصدقة ، ومنافعها العاجلة والآجلة ، فهو أقرب إلى تعاليم الإسلام ، إنّ التنوع فى الصدقات والتوسع فى نطاقها ،وشمولها لكل صغير وكبير يجلب

(١) سيرة النبى ج٥ ــ ص١٤٨ ، ١٤٩ .

www.abulhasanalinadwi.org

الراحة للآخرين، ويدخل السرور على القلوب يشبه الأحكام الإسلامية وتعاليم القرآن والسنَّة ، فقد نرى هناك رعاية للعواطف الإنسانية ، والمشاعر المرهفة اللطيفة ، تجلّت فى أروع صورها ومظاهرها ، ووصلت إلى قمتها فى النظام الإسلامى جاء فى -ABOTH-1 « إن الزكاة والصدقة ركن من أركان المجتمع الإنسانى » وجاء فيه : « إنّ الصدقة لا تختص بالأغنياء وحدهم بل إنّ الفقير يتقرَّب بها كما يتقرَّب بها الغنى » .

إنَّ التعاليم اليهودية تفرض على اليهودى أن يتصدَّق بعشر دخله ، ولكنها لا تسمح له بالخمس ، لئلا يقع فى ضائقة ، ويحتاج بنفسه إلى الصدقات ، -kETHUBOTH 50A وقد سمح بتدخل الحكومة أيضًا فى تحصيل الصدقات، إذا دعت إليه الحاجة ،جاء فى KETHUBOTH19B «إذا رفض البخلاء الصدقة ،أو لم يتصدَّقوا كما ينبغى ، فعلى الحكام أن يرغموهم على ذلك ، أو يضربوا العصاة ، إذا اقتضت الضرورة حتى يذعنوا للأمر » . وهكذا أعطت اليهودية أسرة المتصدق حقًا كاملاً فى الاستفادة من الصدقات ، واعتبرتها أحق بها دون غيرها ، وهو شىء

www.abulhasanalinadwi.org

يشبه الحديث النبوى : « ابدأ بمن تعول » [١] . جاء فى BABAMEZIA « أسرة المتصدق أولى بالاستفادة من هذه الصدقات ، والوالدان أحق بها ، ثم الأخوة والأخوات ، ويليها فقراء القرية ومساكينها ، ويأتى بعدها دور فقراء قرى أخرى » وذلك يشبه التعليم الإسلامى الوارد فى حديث مشهور: « تؤخذ من أغنيائهم،وتردّ على فقرائهم »، ويمكن أن تقدم الصدقات إلى اليهودى وغير اليهودى سواء، (GILTIN 61A) أما فك الرقاب بالفدية فهو أفضل وأسمى من غيره من الصدقات والمبرات BABA BATHRA 88 ويجب أن يلاحظ كرامة الشخص الذى ينال الصدقة ، SHABBUTH63A) والصدقة عابسًا أو كارهًا تحبط العمل BABA BATHRA-98 .

وجاء فى « دائرة معارف الأديان والأخلاق » ما يلى : « كان هناك نظام خاص مستقل لإعانات الفقراء ، وأهل الحاجة فى عهد التلمود ، وهو يتلخص فى تقديم وجبات الطعام يوميًا ، والنقود أسبوعيًا ، وكان العهدة فى هذا الأمر على شخصين أو ثلاثة من الثقات الأمناء ، فكانوا

(١) صحيح البخارى .

www.abulhasanalinadwi.org

يجمعون التبرعات من الجماعة ، كما كانت جماعة أخرى مؤلفة من ثلاثة أفراد تقع عليها مسئولية الفحص فى أمر السائلين والفقراء BAB AATHRA-8A وكان يجب عليهم أن يكملوا مهمتهم، ويؤدوا واجبهم مهتمين بعواطف الفقراء والمساكين ومشاعرهم KETHUBOTH6B وقد استمر هذا التقسيم إلى زمن طويل MIAMLOCVIT-9-3 .

وكان اليهود المتدينون متمسكين بأداء العشر الذى قررته شريعتهم باهتمام وانتظام ، وكانت عادة التسوُّل شاذة فى المجتمع اليهودى فى القرون المتوسطة ، ولكنها نالت رواجًا كبيرًا فى القرن السابع عشر ، وانتشر السائلون المحترفون فى كل طائفة يهودية ، وبدا منظرهم كريهًا ، جديرًا بالاحتقار ، نحن نجد صورة رائعة لمثل هذا الاستجداء الوقح فى كتاب ملك الشحاذين KING OF SHINOWET لمؤلفه (TANGWILL) ولكن التنظيم اليهودى الجديد للمبرة الاجتماعية ، قضى على هذه الحرفة أخيرًا .

ورغم هذا التشابه الجزئى بالتعاليم الإسلامية فى هذا الموضوع ، الذى قدمنا بعض أمثلته فى السطور الماضية ، نجد هناك فرقًا كبيرًا بينه وبين نظام الزكاة والصدقات فى

www.abulhasanalinadwi.org

الإسلام ، وهو أنه توجد فى اليهودية فرقة خاصة لأخذ الزكاة ، وتدبيرها وتوزيعها فى هذه الفرقة ، وهى فرقة تنتمى إلى سلالة خاصة ، ونسب خاص ، وهم يرثون هذا المنصب أبًا عن جد ، يقول الكاتب اليهودى GFMOORE فى كتابه (JUDAIESM) : « إن المبدأ الأساسى لهذا التنظيم (جمع الضرائب للأمور الدينية) كما جاء فى القانون الأساسى لليهود، هو أن يقدم عشر الإنتاج الزراعى إلى « اللاويين » ويقدم هؤلاء عُشر هذا العُشر إلى رجال الدّين » .

ويذكر الكاتب ذلك الشره للمال، والاستحصال بالقوة، وهضم الحقوق الذى اتسم به هذا النظام، فيقول :

« كان علماء اليهود يجمعون هذا العُشر عن طريق عصابات قوية ، يوفدونها إلى الأراضى الزراعية نفسها ، فتأخذه قهرًا وبطشًا ، وكانت تضرب الأحبار الصغار الضعاف ، الذين كانوا يريدون أن يستأثروا به بحق» .

أما نشاط اليهود فى أداء هذه الفريضة ، وتحمسهم لها، وشعورهم بالمسئولية نحوها ، وتطبيقهم على المجتمع فى مختلف أدوار التاريخ ، فيقول عنه المؤلف :

www.abulhasanalinadwi.org

« لعلّ أداء العُشر فى اليهود تُرك إلى ضمير صاحب الضريبة ، مع أن التجربة تدل على أن الاعتماد على الضمير فى هذه الناحية لم يأتِ بخير ، حتى أن هذا النظام الذى يقوم على التطوع ، أخفق فى منطقة صغيرة مثل جوديا (JUDEA) التى كانت حكم إيران ، فقرروا إرسال زعيم دينى مع اللاويين لجمع الأموال (NEH-1-38f) ولكن هذه الحيلة أيضًا باءت بالفشل ، فقد جاء فى (NEH-13-10) إن أداء العُشر تعطل بتاتًا ، حتى اضطر اللاويون إلى ترك معبدهم، وتوجهوا إلى مكان آخر ليحرثوا أرضهم بأنفسهم وينالوا قوتهم »، (MAL-3-8F) .

ويقول مستطردًا :

« ولا عجب فى ذلك فقد كان الفلاح لا يعتمد عليه مطلقًا فى أداء الضرائب الدينية ، حتى المتدينين منهم كانوا يؤثرون تقاليد الآباء والأجداد وكانوا يحسبون أن العادات القديمة أولى وأفضل من فتاوى المدارس ، والإيضاحات الدينية » ويقول :

« وقد أزعجت هذه الغفلة السائدة العامة قادة الدّين ، وأقلقتهم ، ولكن جميع المساعى والمحاولات لتنفيذ هذه

www.abulhasanalinadwi.org

الأحكام الدينية ، باءت بالإخفاق فى صورة عامة ، ولم يبقَ هذا الانحراف فرديًا ، بل أصبح جماعيًا ، فقد أصبح ابتزاز حق الله فى أموال العبيد ، وانتهابه جناية قومية ، ذاقت الأمة وبال أمرها ، فقد كان من المقرر ، أن اليهود لا يستردّون ما فقدوه من فضل الله وبركاته إلا بالإصلاح الشامل ، واستعادة حياة الطاعة والانقياد » .

MAL3-8-12 MIDRASH - TEBELHORON ISLAM
51 2Co, 8-9

ويقول :

« ولا شك أن علماء الدّين أنذروا قومهم ونصحوهم بأن هذا الخداع والمكر والانحراف عن أداء العُشر إثم كبير، ولكنهم لم ينجحوا فى إصلاح القوم » .

بعد هذه الشهادات الجليّة الواضحة لعلماء اليهود ومؤرخيهم ، ومع العلم بأن اليهود ظلوا فى جميع أدوار حياتهم شعبًا مغرمًا بالثراء الفاحش والاكتناز ،استخدم جميع الوسائل وكل ذكائه ، لتنمية الأموال وتكثيرها ، وكان له الزعامة فى عمل الربا ، وصناعة الصِّرافة والنقود،

www.abulhasanalinadwi.org

والبراعة فى الأعمال التجارية فى كل عصر ومصر، يحلو لنا أن نتلو تلك الآيات الكريمة المعجزة التى ذُكر فيها بخلهم وحرصهم الزائد ، وتماطلهم فى أداء الحقوق ، وميلهم إلى التأويل والتعليل ، وعسى ولعل ، وكلماتهم الوقحة الجريئة فى مثل هذه المناسبات وعند أداء الواجبات :

﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ [آل عمران : ١٨١] (١) .

وقد قالوا حينما طلب منهم الإيثار والسخاء ، والبذل فى سبيل الله فى وقاحة وجرأة « يد الله مغلولة » :

---

(١) جاء فى تفسير ابن كثير فى تفسير هذه الآية :

« قال سعيد بن جبير عن ابن عباس : لما نزل قوله تعالى: ﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضًا حسنًا فيضاعفه له أضعافًا كثيرة ﴾ قالت اليهود: يا محمد، افتقر ربك فسأل عباده القرض ؟ فأنزل الله ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ﴾ الآية، رواه ابن مردويه وابن أبى حاتم» .

(تفسير ابن كثير الجزء الثانى ص١٦٨ طبع بيروت) .

www.abulhasanalinadwi.org

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة : ٦٤].

ويبدو لنا ــ فى ضوء القرآن ــ أن يهود الحجاز الذين كانوا مسيطرين على اقتصاد البلاد محتكرين لتجارتها ، قصروا دائمًا فى الصدقات والمبرات وأداء الزكاة ، يقول القرآن : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [البقرة : ٨٣].

الصدقات فى الديانة المسيحية :

وبما أن المسيح عليه السلام لم يأتِ لأتباعه بقانون عام شامل، وبشريعة تضارع شريعة موسى عليه السلام ، بل إن عمله ظل مقصورًا (١) على إصلاحات وتغييرات شتى ، وإن

---

(١) يقول الله سبحانه وتعالى على لسان عيسى ابن مريم عليه السلام : ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [آل عمران : ٥٠].

www.abulhasanalinadwi.org

دعوته الأساسية كانت تهدف إلى بعث روح صادقة للعبودية والإخلاص ، وإيقاظ عواطف الحب الإلهى والعطف على الإنسان ، وإحلال الحقيقة محل الصور والأشكال ،وكان ذلك إزاء التقليد الأعمى للعادات والأشكال التى أسرف اليهود فى التمسك بها، والعضّ عليها بالنواجذ ، فلم يقدم إلى أمته نظامًا مستقلاً للصدقات ــ شأنه فى الأركان الأخرى للدين وشعب الحياة ــ يتضمن تعليمات وتشريعات دقيقة حيال الشريعة اليهودية ، وأحكام التوراة ، إنه حاول فقط إيقاظ الشعور بالحقيقة والروح، والإخلاص والحق، والحب الإلهى والأخوة الإنسانية فى النظام السابق ، وذلك هو السبب فى عدم وجود نظام واضح ، وقانون منظم للصدقات فى ضوء توجيهات الكنيسة ، وكل ما يوجد فى هذا الموضوع لا يعدو توجيهات خلقية عامة، ومواعظ دينية .

ما هى مكانة الصدقات فى العهد الجديد (١) وكيف كانت تعاليم سيدنا عيسى عليه السلام الأساسية حولها ،

---

(١) الإنجيل .

www.abulhasanalinadwi.org

وتوجيهاته ، وعواطفه الشخصية نحوها؟ وإلى أىّ حدٍ بقيت هذه الفكرة فى عهد الكنيسة بعده، وما هو مدى تعامل العالم المسيحى بهذه الفكرة ؟ يتحدث كاتب مسيحى وهو يستعرض هذا الموضوع بإيجاز فى موسوعة الديانات والأخلاق، يقول:

« لقد ذكر السيد المسيح واجب الصدقات فى خطابه على الجبل، وفى مناسبات أخرى بنفس التأكيد، والإخلاص الذى كان يتظاهر به علماء اليهود قبله، فتجب الصدقة على أتباعه ، ولكن يجب أن تكون هذه الصدقة نابعة من الإخلاص، وبنيَّة الخير فحسب، إن كل مسيحى يريد أن يكتمل فى ذاته كما كان «الأب» الذى هو فى السماء مكتملاً فى شخصيته، ولا ينبغى أن تشوب نيته شائبة من الرياء، وطلب المدح ، والعلو الشخصى (MT-6-IFF كما أن الموعظة التى توجد فى إنجيل لوقا تنطوى على أحكام للصدقات هى أوضح من غيرها «أعطوا تُعطون، أعطوا من يسألكم ، ومن أخذ متاعكم فلا تسترجعوه منه، أحبُّوا أعداءكم، وأقرضوهم ، ولا تؤيسوهم، وستجزون جزاءً كبيراً على ما تفعلون ، حتى تكونوا أبناء تلك الذات

www.abulhasanalinadwi.org

العالية الرفيعة ، لأنها ترحم الجميع وتعطف على الكفور المعربد أيضًا » (LUKE-6-30-35) .

لقد عمل السيد المسيح بما علّم الناس (بل كان عمله أكثر من تعليمه) إنه بذل قسطًا كبيرًا من أوقاته بعد النبوة فى إزالة متاعب الناس، وخدمة الجماهير، وإبراء الذين كان الشيطان قد مسهم، لأن الله كان معه (AC-1038) .

ولكن لا ينبغى لنا أن نعتقد أن المسيح كان ضعيفًا فى انتصاره للإنسانية، فقد قال : إنه ينبغى للإنسان أن يكون طالبًا «لملكوت الله » وللحق قبل كل شىء، أما الصفات الحميدة الأخرى ، فإنها ستنشأ فيه بنفسها، وقال: يجب أن يكون تفكير الإنسان (وهو يساعد الآخرين) فى سلامة أرواحهم فوق تفكيره فى سلامة أجسادهم ، فقد كان هو نفسه حينما يعالج الناس ، أو يساعدهم فى أمورهم، يفكر فى مصلحة (الروح) الدائمة أكثر من مصالحهم المؤقتة ، كما أن ههنا ناحية لابدّ من النظر فيها، وهى أن السيد المسيح قد اعتبر أساس المساعدة والبرّ تلك العلاقة التى يتصل بها الإنسان بربّه ، فهذه هى العلاقة التى تجعل الناس

www.abulhasanalinadwi.org

إخوانًا، وعلى هذا فبما أن الناس كلهم أعضاء أسرة واحدة فى الحقيقة يتحتم عليهم أن يساعد بعضهم بعضًا على أساس كونهم عباد رب واحد .

وقد قال بولس : « وآزروا وتعاونوا فيما بينكم كالسيد العظيم ، واعملوا بقانون سيدنا عيسى عليه السلام » ، (GAL - 62) ولكن الذى لا غبار عليه أنه ما دامت علاقة السخاء والصدقة بهذه الغايات السامية ، والنيّة الخالصة ، فلا مجال فيها للرياء والمباهاة .

ولننظر إلى أى حدّ تأثر أتباع عيسى عليه السلام وأنصاره الأولون بتعاليمه ، التى جاء بها وبالأسوة التى قدمها هو نفسه ، وقد برز نظام اشتراكى كنتيجة حتمية لنزع الروح فى يوم (PENTA COST) أقامه الناس حسب رغباتهم، وأنفق فيه أغنياء الجماعة جلّ أموالهم ، أو ما يقارب الكل على سد حوائج جيرانهم الفقراء (AC-2-44-45) ، ولم يبع كل الناس جميع أموالهم ، فالذين لم يكن عندهم مال فوق حوائجهم ظلّوا ينفقونه على سد مطالبهم، أما الذين كانت عندهم أموال تفضل عن

www.abulhasanalinadwi.org

حاجاتهم ومطالبهم، باعوها كذلك ، أو أنفقوها فى مصالح الجماعة ، (35-34-4) ولاشك أن صدقة عظيمة كهذه لا تدوم إلى أمد بعيد ويبدو من أمثلة SAPHIRA وANANIA أن دافع الخدمة المطلوب كان مصطنعًا متكلفًا فى أكثر الأحيان، ولعل جميع تلك المفاسد التى تنشأ بمساعدة الكسالى والعجزة من الناس ظهرت فى كنيسة القدس، كما يبدو بتهديد بولس أن هـذه المفاسد تعدّت إلى الكنائس الأخرى كذلك (2TH-3-10FF) .

ولو أن صدقة العهد البدائى لم تدم على حالها السابق حينما فتر الحماس السابق فى الناس، غير أن الصدقة بقيت قائمة ، وظلت ميزة خاصة لجميع الكنائس المسيحية ، بل بقيت ميزة الكنيسة، ولما قدم المسيحيون الجدد أيمانهم لبولس للحلف والوحدة ، أنفقوا بوجه خاص على مساعدة الفقراء (سواء كانوا من غير المسيحيين) إن هذا المبدأ هو الذى كان بولس يحرص على إبقائه والاحتفاظ به، (GAL-2-10) ، وبالنظر إلى هذه الغاية ، وانتشار الاتحاد بين كنائس اليهود وغير المسيحيين ، قام بولس بتنظيم كنائس مقدونية (ACHAI) بحيطة بالغة ، وجمعت تبرعات

www.abulhasanalinadwi.org

الصدقة فقام نفسه بإيصالها إلى سدنـة القـدس ، وشاركـه فى هذا العمل بعض الممثلين من الكنائس الأخـرى (2CO, 8-9) .

أما ما أصدره بهذه المناسبة من الأمر بالتبرعات الأسبوعية، فأصبح أساسًا ــ فيما أظن ــ لذلك التبرع الأسبوعى الذى بقى فى عدة كنائس بوجه عام ، ولا يزال باقيًا فى أكثر الكنائس فى زمننا الحاضر ، ولا يقلّ حثّ الزعماء المسيحيين ــ عدا بولس ــ على التصدّق والترحم على الفقراء ، فقد شنّع (السانت جيمس) بكلمات قوية على ذلك الظلم والتعدّى ، الذى يصبّه الأغنياء على الفقراء (TA5-2-1-6-6) ولكنه صوّر قانون الخدمات الدينية تصويرًا مجملاً يقول : « إن الديانة الأصيلة التى لاشية فيها فى نظر الإله والأب ، هى تفقّد أحوال الأيتام والأرامل ، والعطف عليهم، والمشاركة فى أحزانهم، وتزكية النفس من غرور الفخر والمباهاة (1-27) .

وقد وجه مؤلف «رسالة إلى اليهود » وصيّة عملية إلى مخاطبيه فى آخر خطابه ، يقول :

www.abulhasanalinadwi.org

«أحسنوا ، ولا تنسوا توزيع الصدقات ، فإن الله لا يرضى بهذه الذبائح ، وقدم (السانت جوهن) فريضة الصدقة بغاية وضوح وجلاء، أنه يعتبر دافع خدمة الإنسان، نابعًا من عاطفة الحب لله ، يقول :

«الذى تتوفر لديه أسباب الراحة والمتعة ،ثم هو يهرب من مساعدة أخيه الفقير ،وهو يعلم مدى احتياجه ، كيف يدوم فيه حب الله ».

وهكذا يتبيَّن لنا أن الصدقة ، ومساعدة الفقراء تعتبر واجبًا أساسيًا للحياة المسيحية، فى تعاليم السيد المسيح، وأتباعه الأولين، وأن علاقة هذا الواجب الأولى بتلك الصلة، التى يتصل بها الناس بالرب تعالى عن طريق السيد المسيح ، وأن النتيجة الحتمية للاعتراف بهذه الصلة هى الصدقة والحسنة (١) .

دور الإسلام الإصلاحى :

وقام الإسلام بعدة إصلاحات جذرّية ، كان لها الأثر

---

(1) Encyclopedia of Religion Ethics. W.A. Spooner.

www.abulhasanalinadwi.org

الثورى الكبير ، فى نظام الزكاة وفى أخلاق المجتمع.

إلغاء الاحتكار الدينى والطبقى:

منها أنه ألغى الاحتكار الدينى، والاحتكار العائلى، الذى كان قد أساء إلى هذه الطبقة المحتكرة فى جانب، فأفسد أخلاقها، وحولها إلى طبقة مترهلة عاطلة تعيش على الصدقات ، وتترفه على أساس الأموال، التى تأتيها عفواً ومجانًا ، ولا تشعر بحاجة إلى الكدح والجهد، والاكتساب بالطرق الطيّبة الكريمة ، وكان رزقها مضمونًا مكفولاً بمجرد أنها من أولاد النبى فلان، أو من البيت الفلانى، أو الأسرة الفلانية ، أو أنها تشغل المنصب الدينى الفلانى بحكم الوراثة ، وإن لم تقم بحقوقه ومسؤوليته ، فنشأت بذلك طبقة محترفة ، تحتكر الدين وتستغل النسب وتتجرد عن كل فضيلة، أو صفة من صفات الرجولة والمروءة ، والتعفف وعزة النفس.

وفى جانب آخر ، أساء إلى الفقراء والمساكين ، وأصحاب الخصاصة المستحقين، الذين كانت حقوقهم تُهضم، لأن المتصدِّق كان يفضّل ــ بطبيعة الحال ــ أن

www.abulhasanalinadwi.org

تذهب هذه الصدقات إلى من يتشرف بمنصب دينى ، أو بدم نبوى، وسلالة كريمة، كما يشاهد ذلك عيانًا فى المجتمع الهندى، فقد استولى البراهمة، وسدنة المعابد على الصدقات والنذور، فلم يَدعوا شيئًا لرجل الشعب الفقير الذى لا يعتز بالدم البرهمى المقدّس، أو بالسدانة والكهانة، فحُرم فى كثير من الأحيان ما يسدُّ فاقته ويقيم صلبه، وكان فريسة إهمال الأغنياء، وترف البراهمة والسدنة، وضحية الوضع الدينى التشريعى، فى الديانة الهندية الآريّة.

بالعكس من ذلك سدَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم باب هذا الاحتكار الدينى والعائلى، والظلم الاجتماعى إلى آخر الأبد، وحرّم الزكاة على بنى هاشم ــ الذين هم أسرة النبوة ، وأهل الفضل فى تاريخ الإسلام ، والكفاح الدينى ــ فقال فى قوة وصراحة: «إن الصدقة لا تحلّ لنا» (١) وكان يتورّع من أكل الصدقة كلّ التورع، وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه : « أن رسول الله ﷺ كان إذا أتى بطعام ، سأل عنه، فإن قيل هدّية ،أكل منها، وإن قيل

(١) رواه أصحاب السنن عن أبى رافع عن النبى ﷺ .

www.abulhasanalinadwi.org

صدقة، لم يأكل منها ، وقال لأصحابه كُلوا» (١) ويبالغ فى منع أهل بيته من أكلها ، حتى لا يتعوّدوا ذلك، ولا يحتجّ به المسلمون ، فيفضّلوهم ويحرموا غيرهم ، فعن أبى هريرة رضي الله عنه ، قال : أخذ الحسن بن على تمرة من تمر الصدقة ، فجعلها فى فيه ، فقال ﷺ : « كخ كخ ، ارم بها ، أما علمت أنا لا نأكل الصدقة » (٢) .

وقد كان هذا حكمًا باقيًا فى حياته وبعد حياته صلى الله عليه وآله وسلم، فقد روى عنه مرفوعًا، أنّه قال: «إن هذه الصدقات، إنّما هى أوساخ الناس، وإنّها لا تحل لمحمد ولا لآل محمد » (٣) وقد جرى العمل بذلك فى الفقه الإسلامى والمجتمع الإسلامى، وبقى باب الزكاة والصدقات المفروضة مفتوحًا على مصراعيه لعامّة المسلمين وفقرائهم ومستحقيهم، لا تُهضم حقوقهم، ولا يُغلبَون فيها على أمرهم ونصيبهم (٤) .

---

(١) رواه الشيخان . (٢) رواه الشيخان.

(٣) رواه مسلم عن أبى هريرة رضي الله عنه.

(٤) انظر البحث فى ذلك فى كتاب«أحكام القرآن» للجصاص، وللقاضى ابن العربى.

www.abulhasanalinadwi.org

وقد كانت هذه سيرته ﷺ فى أهل بيته وأسرته، فكان لهم النصيب الأوفر فى المغارم ، والنصيب الأقل فى المغانم، فلمّا حرّم الرّبا ، بدأ بأسرته والأقربين إليه ، ولمّا وضع دماء الجاهلية ، بدأ بدم أحد أبناء أسرته ، فمما جاء فى خطبته فى حجة الوداع ، قوله : «ألا كل شىء من أمر الجاهلية تحت قدمى موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أوّل دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث، وكان مسترضعًا فى بنى سعد ، فقتلته هذيل، وربا الجاهلية موضوع ، وأوّل ربًا أضع من ربانا ، ربا عباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله إلخ» (١) . ولمّا فُرضت الزكاة فى الإسلام ، وكان بابًا واسعًا ، باقيًا مع الإسلام للرزق الواسع ، عمد إلى بنى هاشم أهل بيته وأسرته ــ فحرمهم الانتفاع به والتعيش عليه ، وتلك طبيعة الأنبياء والرسل ، وسيرة من يكرمهم الله بالرسالة والنبوة، كان لمحمد ﷺ فيها المقام المحمود .

---

(١) رواه مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه .

www.abulhasanalinadwi.org

إسقاط الوسائط فى أداء الزكاة :

ومنها ، أنه أسقط الوسائط بين مؤدّى الزكاة وبين مستحقيها، الوسائط الدائمة التى كان قد فرضها ممثلو الشريعة الموسوية ، وهم الأحبار والرهبان، فكانت الفريضة لا تسقط عن صاحبها إلا إذا تسلمها الكهّان أو الأحبار ، أو سدنة البيت المقدس، فأنشأ ذلك فى هذه الطبقة حبّ المال الفاحش والنهامة، وأساءوا التصّرف فيها أحيانًا كثيرةً ، واستولوا عليها، وحرموا ذوى الحاجة المستحقين ، ولذلك قال القرآن : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾ [التوبة: ٣٤] .

فقد أنشأت هذه الوساطة وهذا الاحتكار فيهم الشره والاستيلاء على أموال الناس والاكتناز ، والثراء الفاحش.

وقد أسقط الله هذه الوساطة الكهنوتية ، كما أسقطها فى جميع العبادات ، وإقامة الفرائض الدينية ، فكل مسلم

www.abulhasanalinadwi.org

يستطيع أن يصلى بنفسه ، ويؤدّى زكاته بنفسه، ويصوم ويحجّ بنفسه، لا يحتاج إلا إلى معرفة أحكامها، المعرفة التى لابدّ منها فى أداء هذه الأركان ، والنيّة ، وتحقيق الشروط التى شرطت لها، فإذا توفرت هذه الشروط لم يكن فى حاجة إلى وسيط ، وإلى طبقة دينية رسمية.

تمليك المستحقين ، وتحكيمهم فيما يأخذونه :

ومنها ، أن بعض الأجزاء من أموال الزكاة ، كما قدّمنا، كانت مقيّدة بقيد، لا يتصرف فيها من يأخذها تصرفًا مطلقًا، فقد كان جزءًا مخصّصا لحجاج بيت المقدس، ولكنه كان مختصًا بضيافتهم وطعامهم، ولكن الشريعة الإسلامية ملّكت الفقراء والمساكين ومن يستحق الزكاة هذه الأموال التى يأخذونها، فيتصرفون فيها، كما يشاءون، وينفقونها فى حاجاتهم ورغباتهم ومصالحهم، وذلك ما تفيده اللام فى قوله تعالى: ﴿ **لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا** ﴾ [التوبة : ٦٠] (١) .

---

(١) انظر البحث فى هذه اللام ، فى كتب أحكام القرآن ، وفي كتب أصول الفقه للمذاهب الأربعة .

www.abulhasanalinadwi.org

«هذه الإصلاحات والتحسينات، هى التى جعلت نظام الزكاة الإسلامى، أرقّ وأدقّ ، وأوفى، وأرقى نظام تعبّدى واجتماعى، وأكفل بالمصالح الفردية والاجتماعية » (١).

مكانة الزكاة فى الإسلام، ووضعها الشرعى الأصيل:

قُرنت الزكاة بالصلاة فى اثنين وثمانين (٢) ٨٢ موضعًا من القرآن ، وتكررّ فى القرآن : ﴿ **وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ** ﴾ [البقرة : ٤٣] (٣) ، وفى وصف المسلمين ، ﴿**يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ**﴾ [المائدة : ٥٥] وقد عدّها رسول الله ﷺ من أركان الإسلام وأسسه ، فقال : « بُنى الإسلام على خمس ، شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وحج البيت،

---

(١) استفدنا فى هذا البحث من المجلد الخامس «للسيرة النبوية» لأستاذنا العلامة السيد سليمان الندوى رحمه الله تعالى.

(٢) حسب إحصاء العالم الجليل الأمير قطب الدين خان الدهلوى (م١٢٨٩هـ) فى ترجمة مشكاة المصابيح وشرحها .

(٣) وغير ذلك .

www.abulhasanalinadwi.org

وصوم رمضان » (١) وسُئل ما الإسلام ؟! فقال : « أن تعبد الله ولا تشرك به شيئًا ، وتقيم الصلاة المكتوبة ، وتؤدى الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان » (٢) . وفى حديث ضمام بن ثعلبة ، أنه قال له : « أنشدك بالله آلله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا ، فتقسمها على فقرائنا ؟ قال : اللّهم نعم » (٣) ، والأحاديث فى هذا الباب أكثر من أن تحصى ، وقد بلغت حد التواتر المعنوى ، وانعقد على كونها قرينة الصلاة الإجماع ، وتعاملت الأمة بها جيلاً بعد جيل .

وقد جعل الله إقامة الصلاة وأداء الزكاة علامةً لصحة الإسلام وأحكامه ، ودخول الرجل فى السلم مع الله والإخاء مع المسلمين ، فقال : ﴿ **فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [التوبة : ٥] وقال : ﴿ **فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي**

(١) أخرجه مسلم والترمذى عن ابن عمر رضي الله عنه .
(٢) للشيخين عن أبى هريرة رضي الله عنه .
(٣) رواه البخارى عن أنس رضي الله عنه .

www.abulhasanalinadwi.org

الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة : ١١] وأخرج البخارى ومسلم من حديث عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ،وأن محمدًا رسول الله ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلاّ بحق الإسلام وحسابهم على الله » وأخرج البخارى ومسلم والنسائي من حديث أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلاّ الله ويؤمنوا بى وبما جئتُ به ، فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله » .

الأصل فى الزكاة ، أن تكون بنظام :

وطبيعة الزكاة ، ووصفها الشرعي الأصيل ، أن تدفع إلى بيت مال المسلمين ، وإلى من يلى أمرهم من الخلفاء والأمراء (١) ، كما أن طبيعة الصلاة ، ووضعها الشرعى الأصيل أن تؤدى فى جماعة .

---

(١) المسلمون مكلفون شرعًا بإقامة نظام الخلافة والإمارة ، آثمون بالتهاون فيها ، والإخلال بها ، كما هو واضح من دراسة كتب الحديث والفقه، وكما هو=

www.abulhasanalinadwi.org

تمسك أبى بكر الصديق لهذا الأصل ، ومحافظته عليه :

وهذا هو الأصل الشرعى ، الذى فارق عليه رسول الله ﷺ الدنيا ولقى ربه ، وترك المسلمين عليه ، فتمسَّك به خليفته وأمينه فى دينه وأمته ، وأفقه الناس لهذا الدين وأسراره ، ومقاصده ، وأغيرهم عليه ، أبو بكر الصديق، فجدَّ وَألحَّ على أن يقاتل مَن منع الزكاة عن بيت المال .

وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه هذا الخبر مفصلاً ، وما جرى بين أبى بكر وعمر ــ وهما شيخا الإسلام وركناه ــ من الحديث ، وكيف اختلفت وجهة نظرهما حتى وافق عمر ، وأقرّ أبا بكر على ذلك ، واعترف بعمق نظره ،

= ظاهر من فهم روح الإسلام ومقاصده ، وتفيد فى هذا الموضوع مطالعة كتاب « إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء » لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى ، وكتاب « منصب الإمامة » لحفيده العلامة الشيخ إسماعيل الشهيد، وكان المسلمون الأولون يستعظمون أن يقضوا أقصر مدة من الزمان، من غير خلافة وخليفة ، وقد اعتاد المؤرخون أن يذكروا بدء السنة فى هذه الفترة: بقولهم : وحلت سنة كذا ، والمسلمون من غير خليفة ، فكيف لو شهدوا هذه الحقبة الطويلة التى تمر من غير تفكير ، أو توجع لهذا الوضع الشاذ؟! .

www.abulhasanalinadwi.org

ودقة فهمه ، وغيرته على هذا الدين ، وإلى القارىء هذه القصّة بطولها ، كما رواها أصحاب الصحاح [١] :

« عن أبى هريرة رضي الله عنه ، لما توفى رسول الله ﷺ ، وكان أبو بكر ، وكفر من كفر من العرب ، فقال عمر : كيف تقاتل الناس ، وقد قال رسول الله ﷺ : أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلاّ الله ، فمن قالها فقد عصم منى ماله ونفسه ، إلاّ بحقه ، وحسابه على الله تعالى ؟ فقال: والله ، لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حقُّ المال ، والله لو منعونى عناقًا [٢]، كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ ، لقاتلتهم على منعها ، قال عمر : فوالله ما هو إلاّ أن قد شرح الله صدر أبى بكر للقتال ، فعرفت أنه الحق ».

لماذا وقف أبو بكر هذا الموقف ، من مانعى الزكاة ؟ :

وقد بحث العلامة الخطّابى [٣] ، فى أصناف أهل

---

(١) رواها الجماعة ، إلا ابن ماجه .

(٢) فى لفظ مسلم ، والترمذى ، وأبى داود : « لو منعونى عقالاً كانوا يؤدونه ، بدل العناق » .

(٣) ننقله من كتاب « نيل الأوطار » للعلامة الشوكانى ـ ج٤ ـ ص١١٩ ، ١٢٠ .

www.abulhasanalinadwi.org

الرّدة، والبغى ، وحقيقة منعهم للزكاة ، ومراتبهم ، وموقف أبى بكر منهم ، ليستطيع به القارئ أن يستعرض الوضع التاريخى فى تلك الفترة وأسباب اختلاف فهم الصحابة وحكمهم عليه ، يحسن أن ننقله هنا باختصار وتلخيص ، يقول رحمه الله :

« أهل الرّدة كانوا صنفين ، صنفًا ارتدوا عن الدين ، ونابذوا الملة ، وعدلوا إلى الكفر ، وهم الذين عناهم أبو هريرة رضي الله عنه ، وهذه الفرقة طائفتان ، إحداهما أصحاب مسيلمة الكذاب من بنى حنيفة ، وغيرهم الذين صدقوه على دعواه فى النبوة ، وأصحاب الأسود العنسى ، ومن استجاب له من أهل اليمن ، وهذه الفرقة بأسرها منكرة لنبوة نبينا محمد ﷺ مدّعية النبوة لغيره ، فقاتلهم أبو بكر، حتى قتل مسيلمة باليمامة، والعنسى بصنعاء ، وانفضت جموعهم ، وهلك أكثرهم . والطائفة الأخرى ارتدوا عن الدين ، فأنكروا الشرائع ، وتركوا الصلاة والزكاة وغيرهما من أمور الدين، وعادوا إلى ما كانوا عليه فى الجاهلية،

www.abulhasanalinadwi.org

فلم يكن يسجد لله فى الأرض إلاّ فى ثلاثة مساجد، مسجد مكة، ومسجد المدينة، ومسجد عبد القيس .

والصنف الآخر ، هم الذين فرّقوا بين الصلاة والزكاة، فأنكروا وجوبها ووجوب أدائها إلى الإمام ، وهؤلاء على الحقيقة أهل البغى ، وإنما لم يُدعوا بهذا الاسم فى ذلك الزمن خصوصًا ، لدخولهم فى غمار أهل الرّدة ، وأضيف الإسم فى الجملة إلى أهل الرّدة ، إذ كانت أعظم الأمرين وأهمهما ، وأرخ مبتدأ قتال أهل البغى من زمن على بن أبى طالب عليه السلام ، إذ كانوا منفردين فى زمانه لم يخلطوا بأهل الشرك .

وقد كان فى ضمن هؤلاء المانعين للزكاة ، من كان يسمح بالزكاة ، ولم يمنعها إلاّ أن رؤساءهم صدوهم عن ذلك الرأى ، وقبضوا على أيديهم فى ذلك كبنى يربوع ، فإنهم قد كانوا جمعوا صدقاتهم ، وأرادوا أن يبعثوا بها إلى أبى بكر، فمنعهم مالك بن نويرة من ذلك، وفرّقها فيهم ،

www.abulhasanalinadwi.org

وفى أمر هؤلاء ، عرض الخلاف ، ووقعت الشبهة لعمر بن الخطاب ، فراجع أبا بكر وناظره ، واحتج عليه بقول النبى ﷺ : « أُمرت أن أقاتل الناس » الحديث وكان هذا من عمر تعلقًا بظاهر الكلام ، قبل أن ينظر فى آخره ، ويتأمل شرائطه ، فقال له أبو بكر : إنّ الزكاة حق المال ، يريد أن القضية قد تضمنت عصمة دم ومال متعلقة بأطراف شرائطها، والحكم المعلق بشرطين ، لا يحصل بأحدهما والآخر معدوم ، ثم قايسه بالصلاة ، وردّ الزكاة إليها ، فكان فى ذلك من قوله دليل على أن قتال الممتنع من الصلاة كان إجماعًا من الصحابة ، ولذلك رد المختلف فيه إلى المتفق عليه .

فلما استقر عند عمر صحة رأى أبى بكر ، وبان له صوابه ، تابعه على قتال القوم ، وهو معنى قوله : فعرفت أنه الحق ، يشير إلى انشراح صدره بالحجة التى أدلى بها ، والبرهان الذى أقامه نصًا ودلالة » (١) .

---

(١) يبدو لى ، أن قتال أبى بكر للذين ارتدوا عن الدين ، ونابذوا الملة ، وعدلوا إلى الكفر ، والذين انكروا الشرائع ، وتركوا الصلاة وغيرهما من أمور=

www.abulhasanalinadwi.org

فضل موقف أبى بكر ، وحسن أثره فى الإسلام :

قد كان منع الزكاة عن الإمام ثلمةً كبيرة فى الإسلام ، وبابًا واسعًا للثورة والفوضى ، لو سمح أبو بكر ــ لا سمح الله بذلك ــ بفتحه ، وتهاون فى سده وإغلاقه ، لما استطاع أحد من بعده أن يسدّه ، وفتح على إثره أبواب

= الدين ، وعادوا إلى ما كانوا عليه فى الجاهلية ، وهم الذين عدهم الخطابى من أهل الصنف الأول ، وكذلك الذين فرقوا بين الصلاة وبين الزكاة ، فأنكروا وجوب الزكاة ، وهم الذين عدهم الخطابى من الصنف الثانى، كان قتال أبى بكر رضي الله عنه لهؤلاء جميعًا على أساس أنهم من أهل الردة ، وقد كفروا بإنكار ما صح فى هذا الدين بالضرورة ، ولذلك قال : « والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال» أما الذين أنكروا وجوب أدائها إلى الإمام فاستبدوا بها واستأثروا أو فرقوها فى قبيلتهم، ومن كان يسمح بالزكاة ولم يمنعها ، إلا أن رؤساءهم صدوهم عن ذلك الرأى، فأطاعوهم . كان قتال أبى بكر لهم على أساس أنهم من أهل البغى . وقتال أهل البغى ثابت فى القرآن متفق عليه بين المسلمين . فقد قال تعالى : ﴿فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩] هذا ، والله أعلم بالصواب .

www.abulhasanalinadwi.org

أخرى فى أمر الصلاة فقال قوم : لا لزوم للجمعة والجماعة ، وحسبنا أن نصلى فرادى أو فى بيوتنا ،وفى أمر الصيام . فقيل: لا لزوم لتوقيته برمضان، أو بمبدئه ومنتهاه، وكذلك الحج الاجتماعى الذى مناسكه معينة، وأوقاته محدودة إلى غير ذلك، وأصبحت الخلافة النبوية، ونظام الإمارة فى الإسلام، الذى ترتبط به الحدود والأحكام، وعزة الإسلام ، كبحر العروض اسم ولا ماء، وانفرط عقد الإسلام والمسلمين على إثر وفاة الرسول ، كما انفرط بعد قرون وأحقاب، فكان موقف أبى بكر، الذى لا هوادة فيه ولا ليونة، ولا مساومة فيه ولا تنازل، موقفا موفقًا ملهمًا من الله، يرجع إليه الفضل الأكبر فى سلامة هذا الدين، وبقائه على نقائه وصفائه وأصالته، وقد أقر الجميع ، وشهد التاريخ بأن أبا بكر قد وقف فى مواجهة الردة الطاغية ، ومحاولة نقض عرى الإسلام عروةً عروةً ، موقف الأنبياء والرسل فى عصورهم، وهذه خلافة النبوة التى أدى أبو بكر حقها، واستحق بها ثناء المسلمين ودعائهم إلى أن يرث الله الأرضَ وأهلها.

www.abulhasanalinadwi.org

تفويض أداء زكاة الأموال الباطنة إلى أربابها:

وبقى الوضع هكذا بفضل جهاد أبى بكر وصلابته ، تُدفع الزكاة والصدقات المفروضة بجميع أنواعها ، إلى بيت المال حتى كانت خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه ، فسمح بأداء زكاة الأموال الباطنة ، وهما النقدان ، إلى مصارفها ومستحقيها ، وأن يتولى ذلك أصحابها بأنفسهم ، وبقيت زكاة الأموال الظاهرة ، وهى المواشى والزروع والثمار تدفع إلى بيت المال ، يقول الإمام أبو بكر الجصّاص الرازى فى تفسيره (١) :

أما زكوات الأموال ، فقد كانت تحمل إلى رسول الله ﷺ ، وأبى بكر ، وعمر ، وعثمان ، ثم خطب عثمان ، فقال : « هذا شهر زكواتكم ، فمن كان عليه دين ، فليؤدّه ، ثم ليزكِّ بقية ماله » ، فجعل لهم أداءها إلى المساكين ، وسقط من أجل ذلك حق الإمام فى أخذها ، لأنه عقد عقده إمام من أئمة العدل ، فهو نافذ على الأمة،

---

(١) أحكام القرآن للجصاص ــ ج٣ ص١٥٥ .

www.abulhasanalinadwi.org

لقوله ﷺ : « ويعقد عليهم أموالهم » (١) .

إخلال حكومات المسلمين بنظام الزكاة ، وعقوبته فى الدنيا:

واحتفظت الخلافة الإسلامية ـ بأنواعها ودرجاتها المختلفة ـ بحقها فى جباية زكاة الأموال الظاهرة ، استمر هذا الوضع إلى آخر الخلافة العباسية كما يدل عليه كتاب الخراج للإمام أبى يوسف، والكتب التى ألفت فى أدوار مختلفة فى موارد الخلافة وماليتها ، حتى زال هذا الوضع الشرعى زوالاً كليًا فى حكومات المسلمين ، التى لم تطبق

---

(١) يقول العلامة علاء الدين، أبو بكر الكاسانى الحنفى (م٥٨٧هـ): «وأما المال الباطن الذى يكون فى المصر، فقد قال عامة مشايخنا: إن رسول الله ﷺ طالب بزكاته، وأبو بكر وعمر طالبا ، وعثمان طالب زمانًا ، ولما كثرت أموال الناس ، ورأى أن فى تتبعها حرجًا على الأمة، وفى تفتيشها ضررًا بأرباب الأموال، فوض الأداء إلى أربابها » (البدائع والصنائع ج٢ ـ ص٣٥).

ويقول العلامة ابن الهمام (م٨٦١هـ): «وعلى هذا كان رسول الله ﷺ والخليفتان بعده، فلما ولى عثمان رضي الله عنه ، فظهر تغير الناس، كره أن تفتش السعاة على الناس مستور أموالهم، ففوض الدفع إلى الملاك نيابة عنه، ولم تختلف الصحابة عليه فى ذلك ، وهذا لا يسقط طلب الإمام، أصلاً » (فتح القدير ج١ ـ ص٣١١).

www.abulhasanalinadwi.org

النظام الشرعى، ولم ترث خلافة النبوة في مناهجها الخلقية، وخصائصها الاجتماعية، وسياستها المالية ، فكان ما رأيناه من اضطراب الحياة فى بلاد المسلمين ، وحرمانهم من بركات نفاذ أحكام الشريعة الإسلامية على منهاجها الصحيح، وعُذبوا أخيراً بالرأسمالية الغاشمة، وبالاشتراكية الكاذبة، والشيوعية المتطرفة المجنونة ﴿**وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾ [السجدة: ٢١].

الزكاة هى الحد الأدنى، للبر والمواساة :

كانت الزكاة المشروعة في الإسلام ، هى الحد الأدنى للبر والمواساة فى أموال المسلمين وثروتهم ، وفريضة لا يقبل الله عنها صرفًا ولا عدلاً، وهذا الذى تطالب به الشريعة الإسلامية بكل جد وصرامة ، وتعتبره شرطًا للإسلام، وشعاراً للمسلم، وركنًا من أركان الدين الأساسية ﴿ **فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ** ﴾ [التوبة: ١١] والذي ينكرها، ويمتنع عن أدائها ــ عمدًا وإصراراً ــ يُعتبر أنه خلع ربقة الإسلام، وفارق المسلمين ، وقد قاتلهم أفضل الأمة بعد نبيِّها، وأفقهها

www.abulhasanalinadwi.org

لدينه أبو بكر الصديق، ووافقه الصحابة ﷺ، فكان إجماعًا منهم .

إن فى المال حقا سوى الزكاة :

ولكن الرسول ﷺ ـ فى حياته الخاصة ، وفى ذوقه واتجاهه، وفى تحريضه وترغيبه، وفى وصاياه وتوجيهاته، لخاصة أصحابه، ولمن أراد أن يأنس به ، وسمت همته ـ لم يقف عند هذا الحد ولم يعتبره المثل الأعلى فى البر والمواساة ، وأداء الحقوق ، وقد عبر عن ذلك فى أسلوبه النبوى الموجز المعجز، الذى تقصر عنه عبارات البلغاء وإطناب العلماء، بقوله : « إن فى المال حقا سوى الزكاة». فقد روى الترمذى بسنده عن فاطمة بنت قيس ، سُئل أو سألت رسول الله ﷺ عن الزكاة ، فقال: «إن فى المال حقًا سوى الزكاة» ثم تلا : ﴿ **لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ** ﴾ الآية، وتمام الآية ، ﴿ **لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ**

www.abulhasanalinadwi.org

بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧] .

النظرية النبوية الخاصة، إلى الحياة وإلى المال :

وقد دلت سيرته فيما آتاه الله من مال، وسيرته فى أهل بيته ، الذين كان أعظم هذه الأمة برًا بهم وحدبًا عليهم، كما قال : «خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلى » (١) ، وسيرته فى أقرب الناس وأحبهم إليه، على نظرته النبوية الخاصة، التى كان ينظر بها إلى هذه الأموال، بل إلى هذه الحياة كلها، بل إلى هذا الكون كله، نظرة تقصر عن تصويرها والتعبير عنها المعاجم، والثروة اللغوية ـ على سعتها وضخامتها ـ وتسىء إلى جلالها وسموها ، ونزاهتها ورقتها، المصطلحات الاقتصادية الجافة، إنها نظرة من يستحضر جلال الله وعظمته، ويتخلق بأخلاقه، ويستحضر اليوم الآخر، ﴿ يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ. إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٨٨ ، ٨٩] ويحن إليه أكثر

(١) رواه الترمذى والدارمى عن عائشة رضي الله عنها ، ورواه ابن ماجه عن ابن عباس إلى قوله : لأهلى.

www.abulhasanalinadwi.org

من حنين السمك إلى الماء، وأعظم من حنين الطائر إلى وكره، فينطلق لسانه قائلاً: «اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة» (١) ويرى إلى هذا المال كزبد البحر، أو غثاء السّيل، أو حصى البطحاء ، لا يقيم له قيمةً ولا وزنًا، ويرى الخلق عيال الله ، ويرى نفسه كوليّ اليتيم ، ويفضل لغيره الخصب والرخاء، والسعادة والهناء، ولنفسه وعياله ، وأهل بيته الفاقة والجوع ، والتقشف وخشونة العيش ، يقول: «أشبع يومًا وأجوع يومًا » (٢) ويقول : «اللهم ارزق آل محمد قُوتًا » (٣) . ويبلغ أزواجه رسالة الله ، وقد صادفت هواه ورغبته، وذوقه واتجاهه ، فطاب بها نفسًا، وقرَّ بها عينًا، ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً . وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ**

---

(١) رواه البخارى ج٢ ــ ص ٩٤٩.

(٢) روى الترمذى عن أبى أمامة مرفوعًا ، «عرض على ربى ليجعل لى بطحاء مكة ذهبًا فقلت: لا يارب ، ولكن أشبع يومًا، وأجوع يومًا، فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك وإذا شبعت حمدتك وشكرتك».

(٣) رواه البخارى ج٢ ــ ص ٩٥٧ .

www.abulhasanalinadwi.org

أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٢٨ ، ٢٩] فلم يكن منهنّ إلا أن آثرن الحياة مع الرسول ﷺ ، ولم يؤثرن الحياة مع آبائهنّ، وإخوتهنّ الذين توسّع عيشهم ولانت حياتهم.

معيشة الرسول ﷺ ، وأهل بيته :

وكيف كانت الحياة مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، التى آثرنها وفضّلنها ؟ ، استمع إلى عائشة الصديقة تتحدث عنها فى صدقها الموروث، وتجربتها الواسعة، وخبرتها التى لا خبرة فوقها، «ولا ينبئك مثل خبير» :

«ما شبع آل محمد من خبز البُرّ، ولقد كنا نمكث الشهر والشهرين، لا يوقد فى بيتنا نار، وما كان طعامنا إلا التمر والماء، ولقد توفى رسول الله ﷺ وما فى بيتنا شىء يأكله ذو كبد ، إلا كسرة خبز من شعير على رف لى» (١).

ويدخل عليه عمر يومًا ، فيراه على حصير ، قد أثر فى جنبه ، ويرفع رأسه فى البيت فلا يجد إلا إهابًا (٢)

---

(١) رواه البخارى، ومسلم ، وغيرهما.

(٢) الإهاب: كيس من جلد .

www.abulhasanalinadwi.org

معلقًا ، وقبضة من شعير ، وحصيرًا تكاد تبلى ، فيبكى عمر، فيقول رسول الله صلي الله عليه وآله وسلم: « ما يبكيك يا ابن الخطاب؟ ،فيقول عمر : يا نبىَّ الله ! ومالى لا أبكى، وهذا الحصير ، قد أثر فى جنبك ، وهذه خزائنك لا أرى فيها إلا ما أرى، وذاك كسرى وقيصر ، فى الثمار والأنهار، وأنت نبى الله وصفوته؟ ، فيقول عليه السلام : أفى شك أنت ، يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم فى الحياة الدنيا » (١) .

تحرجه من المال الفاضل ، وقلقه من بقاء مال الصدقة:

وكان لا يجد الراحة مع المال الفائض عن حاجته التى لا حاجة دونها، ولا زهد فوقها، والفاضل من أموال الصدقة التى يأخذها للتوزيع على فقراء المسلمين، «فعن عائشة رضي الله عنها، أنها قالت : كان لرسول الله ﷺ عندى فى مرضه ستة دنانير أو سبعة فأمرنى رسول الله ﷺ، أن أفرقها ، فشغلنى وجع النبى ﷺ ، ثم سألنى عنها، ما

(١) اقرأ الحديث فى الجامع الصحيح ، للبخارى ، ومسند ابن حنبل ، وسنن ابن ماجه ، والألفاظ متقاربة .

www.abulhasanalinadwi.org

فعلت الستة أو السبعة، قلت : لا والله ،لقد كان شغلنى وجعك ، فدعا بها ثم وضعها فى كفه، فقال: ما ظن نبى الله ، لو لقى الله عز وجل ، وهذه عنده ؟ »[١].

وكان لا يتأخر فى وضع هذه الأموال فى مواضعها، وإيصالها إلى غايتها ، ولا يرجئ ذلك إلى وقت آخر، وقد روى عن عقبة بن الحارث قال : صليت وراء النبى ﷺ بالمدينة العصر، فسلم، ثم قام مسرعًا، فتخطى رقاب الناس إلى بعض حجر نسائه ، ففزع الناس من سرعته فخرج عليهم، فرأى أنهم قد عجبوا من سرعته ، قال « ذكرت شيئًا من تبر عندنا ، فكرهت أن يحبسنى فأمرت بقسمته»[٢] وفى رواية : «قال : كنت خلفت فى البيت تبرًا من الصدقة، فكرهت أن أبيته ».

حث وتحريض على إنفاق الفاضل من الحاجة :

وقد أوصى أصحابه وأمته بمثل هذه الأخلاق ، وبمثل هذه السيرة، وبمثل هذه النظرة إلى المال وصايا مُرققة مرغبة، يتخيل من يقرؤها فى كتب الحديث أن ليس لأحد

---

(١) رواه أحمد . (٢) رواه البخارى .

www.abulhasanalinadwi.org

حقٌّ فى فضل ماله، وزائد متاعه، ويتحرج بعد ما يقرؤها، ويطَّلع عليها من التنعم بما بسط الله له فى الرزق والتَّمتع بما وسَّع الله له فى الدنيا ، ويضيق ذرعًا، بميسور العيش ، وفضول الحياة، وأطايب الطعام وأنواع الثياب ، وما هو إلا حثّ وتحريض ، وترغيب وتحريص ، وأسوة الرسول التى يقول الله عنها: ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً** ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وقد صحَّ عنه أنه قال : « من كان له فضل ظهر، فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان له فضل زاد، فليعد به على من لا زاد له » (١) وقال: «من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث ، ومن كان عنده طعام ثلاثة ، فليذهب برابع» (٢) وقال: «ما آمن بى من بات شبعان ، وجاره جائع إلى جانبه وهو يعلم » (٣) وقد روى أن رجلاً جاء إلى النبى ﷺ ، وقال له : «اكسنى يا رسول الله ، فأعرض

(١) أخرجه أبو داود عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه .

(٢) رواه الترمذى ، وقال: حسن صحيح .

(٣) رواه الطبرانى ، والبزار ، وإسناده حسن.

www.abulhasanalinadwi.org

عنه، فعاد الرجل يقول : اكسنى يارسول الله ،فقال له : أما لك جار له فضل ثوبين ؟ قال: بلى ! غير واحد ، قال: فلا يجمع الله بينك وبينه فى الجنة » (١) .

قيمة الإنسان، وقيمة مواساته فى نظر الدين الإسلامى:

ورفع قيمة الإنسان ، وقيمة مواساته وقضاء حاجته، إلى أن بلغ ذلك مبلغًا لا يتصور فوقه ، وأصبح من يُقصِّر فى ذلك ، كمن قصَّر فى جنب الله ، فقد جاء فى حديث قدسى : « إن الله عز وجل يقول يوم القيامة : ياابن آدم مرضت فلم تعدنى ! فيقول ابن آدم : يارب ، كيف أعودك، وأنت رب العالمين ؟ فيقول الله : أما علمت أن عبدى فلانًا مرض فلم تعده ؟ أما إنك لو عدته، لوجدتنى عنده، يا ابن آدم، استطعمتك، فلم تطعمنى! فيقول: يارب ، كيف أطعمك ، وأنت رب العالمين؟ فيقول الله: أما علمت ، أن عبدى فلانًا استطعمك ، فلم تطعمه؟ أما إنك لو أطعمته، لوجدت ذلك عندى . يا ابن آدم استسقيتك ، فلم تسقنى ! فيقول: يارب كيف أسقيك،

(١) رواه الطبرانى فى الأوسط .

www.abulhasanalinadwi.org

وأنت رب العالمين ؟ فيقول : استسقاك عبدى فلان، فلم تسقه، أما إنك لو سقيته، لوجدت ذلك عندى» (١) . وقد كان غاية ذلك أن قال: ولا منزلة فوقه فى العدل والفضل، والمواساة والإنصاف : «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » (٢) .

تأثير أسوة الرسول وتعاليمه فى حياة الصحابة رضي الله عنهم :

وقد أثرت أُسوة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، فى حياة الصحابة رضي الله عنهم ، وفى أذواقهم واتجاهاتهم، وسيرتهم فى أهلهم، وفى أموالهم، التأثير المطلوب المتوقع، وسرت هذه الروح فى عروقهم وعقولهم وأخلاقهم، حتى أصبحت حياتهم صورة ــ بقدر الإمكان ــ لحياة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وكان أشبه الناس به بطبيعة الحال، أقربهم إليه وألصقهم به، فتجلت فى حياة الخلفاء الراشدين وكبار الصحابة ، وقد روى التاريخ من أخبار زهدهم وبرّهم ومواساتهم ، وتورّعهم فى ذات نفسهم وأهلهم ، وإيثارهم لشظف العيش، وقلة الأسباب

(١) رواه مسلم . (٢) رواه البخارى .

www.abulhasanalinadwi.org

والتقشف، ما لا يزال ذروة فى تاريخ الأخلاق والديانات، لا يصل إليها السابقون فى الأمم.

نماذج من سيرة الخلفاء الراشدين، وكبار الصحابة وأهل البيت :

فمن ذلك ما رواه المؤرخون ، أن امرأة أبى بكر الصديق خليفة المسلمين ، اشتهت حلوى، واستفضلت من نفقتها من عدة أيام ما تشتريها به ، فلما علم ذلك رد الدريهمات إلى بيت المال ، وأسقط من نفقته كل يوم ما فضل من ثمن الحلوى، لأنه ليس من الحاجات التى يعيش عليها الإنسان. وليس بيت مال المسلمين لتترفَّه به أسرة الحاكم، وتتوسَّع به فى المطاعم.

وزهد عمر فى حياته وتقشّفه مضرب المثل فى التاريخ، ويكفى أن تقرأ خبر رحلته ــ بصفته خليفةً وأميرًا للمؤمنين ــ إلى الجابية « فكان على جمل أورق ، تلوح صلعته للشمس ، ليس عليه قلنسوة ولا عمامة، تصطفق رجلاه بين شعبتى الرحل بلا ركاب، وطاؤه كساء انبجانى

www.abulhasanalinadwi.org

ذو صوف، هو وطاؤه إذا ركب ، وفراشه إذا نزل، حقيبته نمرة، أو شملة محشوة ليفًا، هى حقيبته إذا ركب، ووسادته إذا نزل ، وعليه قميص من كرابيس قد رسم وتخرَّق جنبه » (١).

وأما عثمان ، وهو أكثر إخوانه مالاً ، وأوسعهم أسبابًا، فقد روى شرحبيل بن مسلم أن عثمان بن عفان رضي الله عنه، كان يطعم الناس طعام الإمارة ، ويدخل فى بيته، فيأكل الخبز والزيت :

وأما على بن أبى طالب فهو من زهاد الصحابة المعدودين المعروفين، يصفه صاحبه ضرار ابن ضمرة، فيقول:

«يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل وظلمته، كان والله غزير الدمعة ، طويل الفكرة، يقلِّب كفه ، ويخاطب نفسه، ويعجبه من اللباس ما خشن ، ومن الطعام ما جشب، كان ــ والله ــ كأحدنا ، يجيبنا إذا سألناه ، ويبتدئنا إذا أتيناه، ويأتينا إذا دعوناه» (٢) .

---

(١) البداية والنهاية ـ ج ٧ ـ ص ٥٩ ، ٦٠. (٢) صفوة الصفوة «لابن الجوزى».

www.abulhasanalinadwi.org

وكان تأثير هذه الأسوة فى الصحابة بقدر اتصالهم بصاحبها، وطول عشرتهم له: فكانت لعائشة أم المؤمنين، حبيبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، اليد الطولى فى ذلك ، وقد روى المؤرخون : « أنها تصدقت مرة بمائة ألف درهم وليس عليها إلا ثوب خَلِق، وكانت صائمة، فقالت لها خادمتها: لو أبقيت شيئا لتفطرى عليه! فأجابتها: لو ذكرتنى لفعلت ، وتصدَّقت بمائة ألف وهى جائعة ، فنسيت نفسها وذكرت الناس »(١) .

المواساة والإيثار فى المجتمع الإسلامى الأول:

وسرت هذه الأخلاق وهذه الروح فى المجتمع الإسلامى الأول ، فكان ذلك دأب الصحابة وديدنهم ، يقول ابن عمر رضي الله عنهما : « لقد أتى علينا زمان ــ أو قال : حين ــ وما أحد أحقُّ بدينارِه ودرهمه من أخيه المسلم»(٢).

وكانت نتيجة ذلك حوادث طريفة فى المواساة ، تكاد تبلغ حد المساواة ، وحسن الجوار يكاد يبلغ قمة الإيثار ،

---

(١) رواه الحاكم فى المستدرك .

(٢) رواه البخارى فى الأدب المفرد .

www.abulhasanalinadwi.org

من ذلك ما رواه ابن عمر بنفسه ، قال : « أهدى لرجل من أصحاب رسول الله ﷺ رأس شاة ، فقال : فلان أحوج منى إليه ، فبعث به إليه ، فبعثه ذلك الإنسان إلى آخر ، فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر ، حتى رجع إلى الأول بعد أن تداوله سبعة » (١) .

وانتقل هذا الشعور الدقيق، والحس المرهف ، والغرام بالمواساة ، إلى الأجيال الإسلامية اللاحقة ، وكان للتابعين بإحسان القدح المعلى فى ذلك بطبيعة الحال ، يقول سيد التابعين الحسن البصرى : « لقد عهدت المسلمين ، وأن الرجل منهم يصبح ، فيقول : يا أهليّه يا أهليّه ! يتيمكم ، يتيمكم ، يا أهليه ! يا أهليّه ! مسكينكم، مسكينكم ، يا أهليّه ! يا أهليّه ! جاركم ، جاركم» (٢) . وكـان لبنـى هاشم، وسادة أهل البيت قدَمُ صدقٍ فى هذا المضمار ، وقد روى التاريخ عن جود الحسن بن على وعبدالله بن جعفر ، ورقّة عاطفتهما الشىء الكثير ، وكان لعلى بن حسين بن على رضي الله عنه وعن آبائه التقدم والرئاسة ، فى هذه

(١) إحياء علوم الدين للغزالى ج٢ ــ ص ١٧٤ .
(٢) رواه البخارى فى الأدب المفرد .

www.abulhasanalinadwi.org

المآثر والمكرمات ، قال محمد بن إسحاق : « كان ناس بالمدينة يعيشون لا يـدرون من أين يعيشـون ؟ ومن يعطيهم؟ فلما مات على بن الحسين فقدوا ذلك فعرفوا أنه هو الذى كان يأتيهم بالليل بما يأتيهم به ، ولما مات وجدوا فى ظهره وأكتافه أثر حمـل الجـراب إلى بيـوت الأرامل والمساكـين » (١) .

المواساة والإيثار فى مختلف العصور والأجيال :

وتوارثت الأجيال الإسلامية الفاضلة هذه السيرة ، وهذا الذوق الرفيع ، وهذا الحس المرهف ،وهذه الحسبة الدقيقة على نفوسهم وأموالهم ، ومثّلها الراسخون فى العلم والدين ، والربّانيّون والمربّون أجمل تمثيل وأروعه فى كل عصر وفى كل بلد ، وزخرت بأمثالها وروائعها كتبُ التاريخ والتراجم ، وما فاتها ، وأفلت من استقصاء مؤلّفيها البارعين ، فذكر فى غير مظانه أغرب وأروع مما

(١) أكثر الأمثال والحكايات ، التقطناها من كتاب « اشتراكية الإسلام » لصديقنا المرحوم مصطفى السباعى .

www.abulhasanalinadwi.org

حوته كتب التاريخ . وكان شعار الربانيين ، والشيوخ المربين ، ومبدؤهم أن لا يبيت عندهم درهم ولا دينار ، وأن يؤثروا على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، وأن يكون ما يكرمهم الله به من أموال وهدايا وطرف ، وخيرات تأتيهم من الملوك والأمراء والأغنياء والأثرياء ، وقفًا على فقراء البلد وذوى الحاجات ، الذين لا سبيل لهم إليها ، فكان مبدؤهم وسيرتهم أن « تؤخذ من أغنيائهم وتُردُّ على فقرائهم » ، فكانت مائدتهم من أوسع الموائد وأغناها ، لجميع طبقات الناس ، كما كان قلبهم من أوسع القلوب وأسخاها لجميع الناس ، وقد أُثر عن سيدى عبد القادر الجيلانى ، الذى يعبر فيه عن جميع إخوانه ، ومن كان على شاكلته ، أنه قال : « كَفِّى مثقوبة لا تضبط شيئًا، لو جاءنى ألف دينار ، لم تبت عندى» (١) . وقوله : « أودُّ لو كانت الدنيا بيدى أطعمتها الجائع» (٢) .

وكان لأبعد ثغور الإسلام ، ولأقصى أطراف العالم الإسلامى من هذه السيرة ، ومن هذا الضرب من الناس،

(١ ، ٢) قلائد الجواهر : ص ١٠ .

www.abulhasanalinadwi.org

ومن هذا الطراز الإنسانى نصيب غير منقوص . وتراجم هؤلاء المخلصين الرّبانيين ، والدعاة المربِّين حافلة بنوادر الحكايات ، وروائع الأخبار فى الزهد والإيثار ، والمواساة، والمساواة ، والأريحية ، والنهامة ببذل الأموال . وحسبنا أن نعرض نموذجين من هذه النماذج التى تكاد تكون مطّردة فى حياة هذه الطبقة ، وسيرها متشابهة ، وأخلاقها متشاكلة ، كتشابه الأوراق فى الشجرة ، فكلهم من غرس تعاليم النبوة ، وفروع شجرة : ﴿ **أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ . تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا** ﴾ [إبراهيم : ٢٤ ، ٢٥] .

منها أن الشيخ نظام الدين الدهلوي ، من رجال القرن الثامن الهجرى ، يقول خادمه : إنه كان يترك الطعام المنوّع الفاخر عنده للتسحُّر . فكان يجتزئ بلقيمات ؛ ويقول: أجده فى بعض الأيام ، لم يتناول منه شيئًا ، وكنت أراه لا يُفطر إلاّ بما يقيم الصلب . فقلت له يومًا : نفسى فداك، كيف يحافظ سيدى على حياته وصحته مع هذا القليل من الغذاء ؟! ففاضت عينه على ذلك ، وغلبه البكاء ، وقال:

www.abulhasanalinadwi.org

يا فلان ، كم من فقير بائس ، وكم من مسافر بات فى المساجد والطرقات على الطوّى ، لم يجدوا لقمة ، يتقوّون بها ، فكيف أسيغ هذا الطعام ، والنّاس يبيتون جياعًا ، ويصبحون جياعًا » (١) فلمّا دنت وفاته طلب أصحابه وقال لهم : إذا ادّخر إقبال (خادمه) شيئًا من الحبوب والغلات، فاشهدوا أنّى برىء من ذلك وأنه هو المسؤول أمام ربّه ، فقال إقبال : إننى لم أترك شيئًا ، وقد تصدّقت بكل ما وجدته إلا حبوبًا يأكلها المقيمون فى هذه الزاوية بضعة أيام ، فقال : ادعوا لى الناس ، فلمّا حضروا قال : دونكم الحبوب ، ما تجدون فى هذه الزاوية من الرزق والطعام ، فنهبوه نهبًا ، وأمرهم بأن يكنس ذلك المكان ويجعلوه قاعًا صفصفًا .

والنموذج الثانى ما رواه مؤرخ هندي عن الشيخ السيّد محمد سعيد الأنبالوى وهو من رجال القرن الثانى عشر فيقول : « زاره مرة روشن الدولة ،وكان أميرًا من أمراء السلطان « فرّخ سير » (ملك الهند المغولى) . وقدّم ستّين

(١) سير الأولياء .

www.abulhasanalinadwi.org

ألف روبية [١] لبناء زاويته ، فأمره الشيخ أن يترك هذا المال فى مكان ويستريح ، فانصرف « روشن الدولة » فأرسل الشيخ إلى الفقراء ، وأرسل هذا المال إلى الأيامى والمساكين ، وأهل الحاجة فى ضواحى البلد ، وفى المدن المجاورة حتى لم يبق منه فلس ، فلما أتى روشن الدولة ، قال له : « لا يبلغ الثواب فى بناء العمارة ثواب خدمة ذوى الحاجة ، والفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله » . ووصلته مرة رسائل السلطان محمد فرخ سير ، والأمير روشن الدولة والأمير عبد الله خان ،وأمر بثلاث مائة ألف روبية [٢] . فوزّعها كلّها فى القرى المجاورة ، والأشراف الساكنين فيها » [٣] .

وقد يقول القارئ : إن هذه سيرة طبقة زهدت فى الدنيا ، ورفضت أسبابها وعاشت فى عزلة عن الدنيا وعن

---

(١) تساوى أربعة آلاف جنيه استرلينى ، وإن قدرت قوتها الشرائية ذلك اليوم ، تصبح أضعافًا مضاعفة .

(٢) تساوى ١٤٠٠٠ جنيهًا استرلينيًا .

(٣) نظام التعليم والتربية (فى أردو) المجلد الثانى ــ للعلامة (مناظر حسن الكيلانى) .

www.abulhasanalinadwi.org

النّاس . فهل هناك أمثلة لهذه الزهادة والبرّ والمواساة والاستغناء والإيثار فى طبقات أُخرى من هذه الأمة ؟ ويجيبهم التاريخ الأمين فيقول : نعم ! وفى كل طبقة من طبقات هذه الأمة ؟ وفى كل جيل من أجيالها ، وفى كل بيئة من بيئات دنيا الإسلام من ائتسى بالرسول ﷺ ، وأتى بغرائب فى هذه الأخلاق وفى سيرته فى ماله وفى عياله وجيرانه وأهل بلده وأبناء جنسه ، ولكن التاريخ لم يسجّل إلاّ مآثر من لفت نظره وفرض عليه ذكره وتسجيل حوادث حياته وجوانب شخصيته ، من الملوك والأمراء ، والصلحاء ، والعلماء ، ونقتصر هنا على طبقتين فحسب ، وهما طبقة العلماء الأعلام ، وطبقة الملوك والحاكم .

نختار من طبقة العلماء الأعلام شيخ الإسلام الحافظ ابن تيميّة الذى ينتقد عليه من لا يعرفه الجفاف ، ويعتقدون أن الجانب العلمى فيه يطغى على الجانب العاطفى ، يقول عنه معاصره الحافظ ابن فضل الله العمرى :

« كانت تأتيه القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، والخيل المسوَّمة ، والأنعام ، والحرث ، فيهب ذلك

www.abulhasanalinadwi.org

بأجمعه، ويضعه عند أهل الحاجة فى موضعه ، لا يأخذ منه شيئًا إلاّ ليهبه ، ولا يحفظه إلا ليُذهبه » ، وقد بلغ من السخاء والإيثار أن كان يخلع ما كان عليه من ثياب ، ويقدمها إلى السائل ، إذا لم يجد شيئًا آخر ، يقول الحافظ ابن فضل الله : « كان يتصدّق ، حتى إذا لم يجد شيئًا ، نزع بعض ثيابه ، فيصل به الفقراء » ، ويقول أحد الرّواة: « وكان يتفضل من قوته الرغيف والرغيفين ، فيؤثر بذلك على نفسه» (١) .

ونختار من طبقة الملوك والحكام ، السلطان صلاح الدين الأيوبى ، الذى حكم أكبر دولة إسلاميّة فى عهده ، وهزم أقوى جيوش فى عصره ، يشهد عنه صديقه ورفيقه ابن شداد ، فيقول : « إنه ملك ما ملك ، ومات ولم يوجد فى خزانته من الفضة إلا سبعة وأربعين درهمًا ناصرية ، ومن الذهب إلاّ جرم واحد صورى ، ما علمت وزنه » .

ولمّا مات هذا السلطان العظيم الذى كان يحكم من حدود الشام الشمالية فى آسيا إلى صحراء النوبة فى

(١) الكواكب الدرية .

www.abulhasanalinadwi.org

الجنوب ، فى أفريقيا ، لم توجد فى خزانته ما يكفنونه به، وينفقون على تجهيزه ، يقول ابن شدّاد :

« ثم اشتغل بتغسيله وتكفينه ، فما أمكننا أن ندخل فى تجهيزه ، ما قيمته حبة واحدة إلا بالقرض ، حتى فى ثمن التبن الذى بلت به الطين ، وأُخرج بعد صلاة الظهر فى تابوت مسجى بثوب فوط ، وكان ذلك ، وجميع ما احتاج إليه من الثياب فى تكفينه، قد أحضره القاضى الفاضل من وجه حل عرفه » (١) .

وليست هذه قصة جيل واحد ، ولا قصة مدرسة واحدة من المدارس الفكريَّة والروحيَّة الكثيرة ، فلم يزل هذا شعار العلماء الربَّانيين ، والشيوخ الكاملين ، ولم يزل مبدؤهم «لكل يوم رزقه وقوته » فلم يكونوا يدّخرون شيئًا ولا يشحون بشىء خشية الإقتار ، وعلى ذلك أدركنا شيوخنا ، وأساتذتنا ، فكانوا يتحرجون من أن يفضل عندهم شىء يحتاج إليه عباد الله ، أو يبيت عندهم درهم أو دينار ، وهم فى غنى عنهما ، وكان ذلك فى غير

(١) النوادر السلطانية ، والمحاسن اليوسفية لابن شداد : ص٣٥١.

www.abulhasanalinadwi.org

رهبانيَّة أو تحريم لما أحلّ الله ، وكذلك فى غير تشريع لما لم يشرعه الله ، ولا فى تشديد فيما لم يشدّد الله فيه ، ولا فى إجبار وإرهاق ، ولكنه خوف من المحاسبة ،ورأفة بالخلق ، وتأسٍّ بأسوة الرسول ، وسيرته فى الإنفاق والإيثار ، وتطوع وتبرع ، وترغيب صامت بالأمثال العملية، والنماذج الحية ، وكان لها التأثير العميق فى النفوس والقلوب ، ما يحمل التلاميذ والمحبين على التقليد والاتِّباع (١) .

امتياز المجتمع الإسلامى فى العصر الأخير :

فكان المجتمع الإسلامى ــ على علاَّته وعلى أدوائه الكثيرة ، التى لم يزل المصلحون يحاربونها ــ أفضل المجتمعات البشرية فى عاطفة البر والمواساة ، التى تغلغلت بفضل التعاليم الإسلامية فى أحشائه ، وأكثرها تحررًا من عبادة المادة والمعدة ، يكثر فيها الأفراد الذين يثورون على سلطان المادّة ، ويخضعونها لسطان الدين ، والمُثل الخلُقية

(١) اقرأ نماذج هذا الإيثار والصفاء فى كتابنا « ربانية لا رهبانية » طبع دار الفتح ، فى بيروت .

www.abulhasanalinadwi.org

الإسلامية ، فكان التنافس التجارى والأثرة الفردية أو الطبقية ، أضعف فيه منه فى المجتمعات التى لا تؤمن بحياة، غير هذه الحياة ، ولا تعرف غاية غير غاية الثراء والرخـاء (١) ، وتسوقهـا المثـل الاقتصاديـة سـوقًا عنيفًا ،

---

(١) حدثنى بعض الثقات المعمرين الذين أدركوا عهد الأشراف فى الحجاز ، أن تجار مكة كانوا فى ذلك العهد على جانب عظيم من المواساة لزملائهم والنظر فى مصالحهم ، والإخلاص والإيثار لهم ، قال : « كان بعض التجار ، إذا أتاه زبون فى آخر النهار ، وقد باع ما يكفيه لقوت يومه ، وما حدده من الربح والوارد اليومى ، ولم يكن جاره سعيد الحظ فى ذلك اليوم ، قال له فى لطف وهدوء : دونك هذا الدكان ، الذى هو بجوارى، تجد عنده ما تجده عندى ، وقد لاحظت قلة الزبائن عنده هذا اليوم ، فهو أحق بأن تشترى منه » .

ويتحدث الأستاذ محمد أسد النمساوى، عن مدينة إسلامية عربية كبيرة (هى دمشق) فيذكر انطباعاته كما يلى : « وقفت على ذلك الاستقرار الروحى فى حياة سكانها ، إن أمنهم الباطنى كان يمكن أن يرى فى الطريقة التى كان أحدهم يتصرف بها نحو الآخر »ويذكر تلك الطرق، ثم يقول: «وفى الطريقة التى كان أصحاب الدكاكين يعاملون بعضهم بعضًا ، أولئك التجار فى الحوانيت الصغيرة. أولئك الذين لا ينون ينادون على المارة ، أولئك كانوا يبدون، وكأنما ليس فيهم أيما قدر من الخوف والحسد ، حتى أن صاحب دكان منهم ليترك دكانه فى عهدة جاره ومزاحمه ، كلما دعته حاجة إلى التغيب بعض الوقت . وما أكثر ما رأيت زبونا يقف أمام دكان =

www.abulhasanalinadwi.org

لا رحمة فيه ولا هوادة ، فكانت هذه سمة المجتمع الإسلامى، رغم أنه بلغ منتهى الضعف فى العصر الأخير، وكان أكثر استعداداً وقابلية للتقدم فى مضمار العدالة الاجتماعية ، وتحقيق المُثل الإنسانيّة العليا من كل مجتمع بشرى ، لخضوعه للمبادئ الإسلامية فى قليل أو كثير ، ولوجود الرباط الإيمانى الذى يربط أفراده ويجمع أشتاته .

مواساة طوعيَّة شاملة ، أم مساواة إجبارية محدودة ؟:

ثم جاء أقوام فقدوا الثقة بالإنسان والإنسانية ، ففضّلوا المساواة الإجبارية المحدودة فى المال ،على المواساة الطوعية الشاملة للحياة ، ونسوا أو تناسوا أن الأموال ، ليست هى حاجة الإنسان الوحيدة ، وأن المساواة فيها أو الشركة لا تَسدّ كل فراغ فى نفسه ، وفى مشاعره ،

= غاب صاحبه عنه ، يتساءل فيما بينه وبين نفسه ، ما إذا كان ينتظر عودة البائع، أو ينتقل إلى الدكان المجاور ؟ فيتقدم التاجر المجاور دائمًا ــ التاجر المزاحم ــ ويسأل الزبون عن حاجته ، ويبيعه ما يطلب من البضاعة ــ لا بضاعته هو، بل بضاعة جاره الغائب ــ ويترك له الثمن على مقعده . أين فى أوربا، يستطيع المرء أن يشاهد مثل هذه الصفقة ؟ » (الطريق إلى مكة ص١٦٧) .

www.abulhasanalinadwi.org

وأحاسيسه ،وفى حياته ، ولا تضمد كل جرح من جروحه. إن حاجته إلى مواساة شاملة للحياة كلها ، أشد من حاجته إلى مساواة فى المال كله ، وفى المرافق كلها ، وفى الموارد بأسرها ، وقد تفعل كلمة رقيقة ، أو دمعة بريئة يثيرها الشعور بالألم ، ما لا تفعله الأموال الطائلة ، والعطايا السخية ، وهو فى حاجة إلى مساعدة إخوانه ، وإعانتهم فى بعض الأحيان ، وإلى مشاركتهم فى آلامه ومتاعبه فى أحيان أُخرى ، وإلى رقة شعورهم ودقة إحساسهم حينًا ، وإلى لين عريكتهم ، ودماثة خلقهم وبشرهم ، وحسن لقائهم حينا آخر . ولذلك كان التوجيه النبوى أشمل لأنواع البر والمواساة وأصدق تعبيرًا عن الأحاسيس الإنسانية ، فقال النبى ﷺ ، وهو يذكر طرق البر وأنواع الصدقة : « تعدل بين الاثنين صدقة ، وتعين الرجل فى دابته فتحمله عليها ، أو ترفع له عليها متاعه ، صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة ، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة ، وتميط الأذى عن الطريق صدقة» (١) .
وفى حديث آخر قال : «يعين ذا الحاجة الملهوف ! قال:

---

(١) متفق عليه .

www.abulhasanalinadwi.org

أرأيت إن لم يستطع ؟ قال : يأمر بالمعروف أو الخير. قال: أرأيت إن لم يفعل؟ قال : يمسك عن الشر فإنها صدقة» (١) وفى حديث آخر قال :« تعين صانعًا أو تصنع لأخرق . قلت: يا رسول الله ، أرأيت إن ضعفت عن بعض العمل؟ قال : تكف شرَّك عن الناس ، فإنها صدقة منك على نفسك » (٢) . وفى حديث آخر : «وتبسُّمك فى وجه أخيك لك صدقة ، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة ، وإرشادك الرجل فى أرض الضلال لك صدقة ، وبصرك للرجل الردىء البصر لك صدقة ، وإماطتك الحجر والشوك والعظم عن الطريق لك صدقة ، وإفراغك من دلوك فى دلو أخيك لك صدقة» (٣) .

وكانت نتيجة ذلك الاختيار غير الموفق ، وإيثار المساواة، أو الاشتراكية التى تفرضها الحكومة ، على المواساة التى تنبع من أعماق القلوب ، وتتدفّق فى نواحى الحياة ، وفى عروق المجتمع ، أن قام مجتمع فى هذه البلاد : « الشيوعيّة والاشتراكية » لا يعرف أهله لذّة

---

(١) متفق عليه . (٢) متفق عليه .

(٣) رواه الترمذى عن أبى ذر مرفوعًا .

www.abulhasanalinadwi.org

المواساة لبنى الجنس ، والعطف على الإنسانية ، والرقّة للضعفاء والفقراء ،والإخلاص والنصيحة للشركاء والزملاء، ويصبحون كلهم تجارًا متنافسين وأعداء متباغضين، لايثق أحد بأحد ، ولا يتنازل أحد لأحد ، بعضهم يتجسّس على بعض ، ويلفّق عليه الأخبار ، ويزور عليه القضايا ، ويشمت بمُصابه، ويحزن لسعادته ، ويتحوّل البلد كلّه إلى ميدان حرب، أو بناء محكمة .

وكانت نتيجة هذا الوضع أن فقد النّاس الشّعور بالمسئولية ، والنّهوض بالتبعات الذى فيه سرّ الشرف الإنسانى ، وتخلّوا عن كل عهدة ومسئولية ، وأصبحوا هملاً وسوائم ، لا همّ لها ، إلاّ العلف والرّتع ، والشبع المفرط ، وانتقلت كل مسئوليّة وكل تبعة إلى الحكومات ، وإلى الجهاز الإدارى ، وإلى القوانين والعقوبات ، وأصبح المجتمع غلامًا قاصرًا ، لا تمييز عنده ولا عقل ، فالحكومة هى التى تأخذ وتعطى ، وتُهيّئ لكل فرد حاجته ، وتتكفّل بذلك ، فلا معنى للعطف والمواساة ، ولا معنى للسخاء والإيثار ، ولا حاجة إلى شىء من ذلك ، فكلّ شىء مكفول مضمون ، والناس كالآلات الصمّاء .

www.abulhasanalinadwi.org

لقد تجلّت قواعد المواساة الطوعيّة ، ونتائجها الباهرة ، وما جرَّت على أهلها من الرّاحة والهدوء والسعادة الداخليّة، والثقة المتبادلة ، والحبّ المشترك ، والسّلام الشامل، ولذّة الروح، ورضا الضمير، والاعتزاز بالإنسانيّة والتفاؤل فى الحياة ، وشعور كلّ فرد بمسئوليته وواجبه ، لقد تجلّى كل ذلك فى المجتمع الإسلامى المثالى الأول فى أروع مظاهره ، وأجمل مناظره ، وأعمق معانيه ، ويتجلى فى كل مجتمع يأخذ بمبدأ المواساة الطوعيّة الشاملة ، مقابل المساواة الإجباريّة المحدودة ، أو الاشتراكيّة الضيّقة الجامدة، فأعضاء المجتمع متحابّون ، متناصحون ، شهداء بالخير يُزكّى بعضهم بعضًا . وكل جيل يشهد للجيل الذى سبقه بالفضل والسّبق ، ويدعو له بالقبول والمغفرة ، ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر : ١٠] ذلك هو المجتمع الذى كان كل عضو من أعضائه مرآة لأخيه يقيسه على نفسه ، فينفى عنه كل تهمة ، ويبرّئه من كل نقيصة ، فقد قال الله

www.abulhasanalinadwi.org

تعالى: ﴿ لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ [النور : ١٢] المجتمع الذى ضرب فيه النبى ﷺ مثلاً بليغًا ، فقال :

« مثل المؤمنين فى توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم ، مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى » (١) . المجتمع الذى كل عضو فيه حارس كريم، وناصح أمين لصاحبه ، فقد جاء فى الحديث : « المسلم أخو المسلم لا يخونه ، ولا يكذبه ، ولا يخذله ، كلّ المسلم على المسلم حرام ، عرضه ، وماله ، ودمه » (٢) .

حين أصبحت الحياة فى بلاد كثيرة شقاء وجحيمًا : ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾ [الأعراف : ٣٨] ،وكلّما جاء « دكتاتور » انتقد السابق ، ورماه بالغدر والخيانة ، وكلّ من تسلمّ زمام القيادة ، انتقم من أعدائه ومنافسيه ، انتقامًا شديدًا ، واضطهد وحاكم، وسفك الدماء ، ﴿ وَإِذَا

(١) حديث متفق عليه .

(٢) رواه الترمذى عن أبى هريرة رضي الله عنه .

www.abulhasanalinadwi.org

تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴾ [البقرة : ٢٠٥] .

فمن أبى إلاّ الطريقة الشاقَّة الطَّويلة ، والتجربة المرهقة العقيمة ، قيل له ولأمثاله :

﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ [البقرة : ٦١].

www.abulhasanalinadwi.org

www.abulhasanalinadwi.org

الفهرس

الموضوع	الصفحة
صلة الرب والعبد ، وما توجبه من حب وإخلاص ، وبذل وإيثار	٥
مظاهر الربوبية والعناية بالإنسان	٦
الطبيعة البشرية ، وما لها من أثر فى الحياة والمدنية	٧
الوضع والواقع يقتضيان أن لا يقرر للإنسان ملك، ولا يضاف إليه شىء، وأن يكون الملك كله لله	٩
الفكرة الأساسية فى النظام الاقتصادى والإسلامى، تقرير الملكية الحقيقية لله تعالى	١٠
سر إضافة الأموال والملكية إلى الإنسان ، وفائدتها	١١
كيف غرس القرآن فكرة الأمانة والخلافة فى نفوس المسلمين؟	١٣
كيف آمن المسلمون الأولون بفكرة الأمانة والخلافة ، وكيف خضعوا لها ؟	١٥
الحث على إنفاق الفضل فى سبيل الله، وقيام المسلمين	

www.abulhasanalinadwi.org

به فى نشاط وحماس ١٧
الزكاة بمعنى الإنفاق والصدقات ١٩
الحاجة إلى نظام معين للزكاة وتشريع يوافق الطبقات والعصور ٢٠
فيم تجب الزكاة ؟ وحكمة التفاوت بين النصب والمقادير ٢٣
حكمة مواضع الزكاة وتوقيتها ٢٦
مصارف الزكاة ، وقيام نظامها الاجتماعى ٢٨
مصالح الزكاة الأساسية ٣١
سمات « الزكاة » البارزة ٣٦
التبشير والإنذار ٣٧
تؤخذ من أغنيائهم، وتردُّ على فقرائهم ٤٥
روح التقوى والتواضع والإخلاص ٤٩
الفرق بين الزكاة والربا ٥٢
الإصلاحات التى قام بها الإسلام فى تشريع الزكاة ٥٨
« الصدقات » فى الديانات الأخرى ٥٨
الصدقات فى الديانات الهندوكية ٦٠
الصدقات فى اليهودية ٧٢

www.abulhasanalinadwi.org

الصدقات فى الديانة المسيحية ٨٣
دور الإسلام الإصلاحى ٩٠
إلغاء الاحتكار الدينى والطبقى ٩١
إسقاط الوسائط فى أداء الزكاة ٩٥
تمليك المستحقين ، وتحكيمهم فيما يأخذونه ٩٦
مكانة الزكاة فى الإسلام ، ووضعها الشرعى الأصيل ٩٧
الأصل فى الزكاة ، أن تكون بنظام ٩٩
تمسُّك أبى بكر الصديق رضي الله عنه لهذا الأصل ، ومحافظته عليه ١٠٠
لماذا وقف أبو بكر هذا الموقف من مانعى الزكاة؟ ١٠١
فضل موقف أبى بكر ، وحسن أثره فى الإسلام ١٠٥
تفويض أداء زكاة الأموال الباطنة إلى أربابها ١٠٧
إخلال حكومات المسلمين بنظام الزكاة، وعقوبته فى الدنيا ١٠٨
الزكاة ، هى الحد الأدنى للبر والمواساة ١٠٩
إن فى المال حقًا سوى الزكاة ١١٠
النظرة النبوية الخاصة إلى الحياة وإلى المال ١١١

www.abulhasanalinadwi.org

معيشة الرسول ﷺ وأهل بيته ١١٣
تحرجه من المال الفاضل ، وقلقه من بقاء مال الصدقة ١١٤
حثٌّ وتحريض على إنفاق الفاضل من الحاجة ١١٥
قيمة الإنسان وقيمة مواساته فى نظر الدين الإسلامى ١١٧
تأثير أسوة الرسول وتعاليمه فى حياة الصحابة رضي الله عنهم ١١٨
نماذج من سيرة الخلفاء الراشدين وكبار الصحابة رضي الله عنهم
وأهل البيت ١١٩
المواساة والإيثار فى المجتمع الإسلامى الأول ١٢١
المواساة والإيثار فى مختلف العصور والأجيال ١٢٣
امتياز المجتمع الإسلامى فى العصر الأخير ١٣١
مواساة طوعية شاملة ، أم مساواة إجبارية محدودة؟ ١٣٣
الفهرس ١٤١

رقم الإيداع ١٣٠٢٧/ ٩٧
الترقيم الدولى I.S.B.N 977-5826- 38- 1

www.abulhasanalinadwi.org